المكتبة اللغوية

من أسرار المخالفة بين الضمير ومرجعه في القرآن الكريم

تأليف
الدكتور/ أحمد محمد عبد الراضي
أستاذ النحو والصرف والعروض المساعد
كلية دار العلوم - جامعة الفيوم

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد – القاهرة
ت/ ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٣٨٤١١ / فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عبد الراضي ،احمد محمد
من اسرار المخالفة بين الضمير ومرجعه في القرآن الكريم / تأليف احمد محمد عبد الراضي
- ط ١ – القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٧
١٦٠ص، ٢٤سم
تدمك : 977-341-338-1
١- القرآن – تفاسير نحوية
١- العنوان

ديوى : ٢٢٧,٣٦٦

رقم الايداع : ٢٠٠٧/١٤٦٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين

إهداء

إلى أولادي جميعا أهدي هذا العمل المتواضع – وقد كانوا وراء كل عمل بجهدهم وعونهم – راجياً من الله عز وجل – أن ينفعني بهم دائما ، وأن يجعلهم لي قرة عين ، وأن يسدد خطاهم في طريق الفوز والنجاح .

الدكتور / أحمد محمد عبد الراضي

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

" الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا" والصلاة والسلام على سيدنا محمد ،وعلى آله وصحبه أجمعين،

وبعد -فإن الضمير يحتل مكانة بارزة فى الجملة العربية، حيث يقوم بدور أساسى فى الربط بين أجزائها ، وبدون الضمير لا يلمس القارئ علاقة بين أجزاء الكلام ، ولما كان للضمير هذه الأهمية – كان جديراً بالدراسة والبحث .

ودراسة الضمير – تقتضى دراسة مرجعه ، وخاصة ضمير الغائب – الذى يستلزم مفسراً يوضح معناه، ويبين المقصود منه ، وهذا المفسر – هو الذى يسميه النحاة مرجعا ، وهذا المرجع لا بد أن يتقدم فى الأصل على الضمير ، ولابد من هذا المرجع – أن يكون مطابقاً للضمير – فى عدده ونوعه ، ولكن قد نرى فى القرآن الكريم – ما ظاهره الاختلاف بين الضمير ومرجعه ، سواء أكان اختلافا فى العدد ، أم اختلافاً فى النوع ، ولهذا جعلت موضوع هذا البحث – من أسرار المخالفة بين الضمير ومرجعة فى القرآن الكريم، وقد قصدت بهذا أن أرصد بعض مظاهر هذا الاختلاف فى الأسلوب القرآنى محاولا بقدر الإمكان كشف سر هذا الاختلاف، إذ

لابـد أن يكون وراء.كل ظاهرة نحوية أو لغوية فى القرآن الكريم – سر من أسرار إعجازه.

وقـد قسمت هذا البحث – قسمين يسبقهما تمهيد أوجزت فيه مفهوم الضمير ، وأقسامه ، ودوره فى بناء الجملة العربية .

أمـا القسـم الأول – فقـد تناولـت فيه العلاقة بين الضمير ومرجعه – من حيث الرتبة ، فبينت أنواع التقدم بالنسبة للمرجع على ضـوء مـا جـاء فى القرآن الكريم ، فبينت التقدم اللفظى ، والتقدم المعنوى ، والتقدم الحكمى.

وفـى القسـم الثانى – تتبعت مظاهر الاختلاف بين الضمير ومـرجعه – فـى القـرآن الكـريم ، وصنفتها على حسب نوع هذا الاخـتلاف، وعلـى حسـب الغـرض – الـذى جاء من أجله هذا الاختلاف، وقد حاولت أن أبين العلل النحوية من وراء هذا الاختلاف متوصـلا إلـى أن مـا نراه – فى القرآن الكريم – من اختلاف بين الضـمير ومرجعه – لم يكن مجافياً لقوانين اللغة ، أو بعيداً عن سنن العربية .

ثم أعقبت هذه الدراسة بخاتمة ، أوجزت فيها أهم نتائج البحث.

وقـد اعتمدت فى هذه الدراسة – على كتب الإعراب للقرآن الكـريم، وكتـب التفسـير ، وبعض كتب النحو كما استعنت ببعض المراجع الحديثة التى عالجت بعض قضايا الضمير.

علـــى أن هذه الدراسة لم تهدف إحصاء كل ظواهر المخالفة بيـــن الضمير ومرجعه فى القرآن الكريم ، وذلك تحاشياً للوقوع فى التكرار ، ومن ثم سجلت ما هو جدير بالنظر والبحث.

واســـأل الله تعالى – أن يجعله عملا مقبولاً ، وأن يغفر لى ما قـــد يكون فيه من زلات أو هفوات ، اذلا كمال إلا لله تعالى وحده ، كما اسأله تعالى – أن ينفع به كل من قصده طالبا منه نفعاً–

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

وصلى الله على سيدنا محمد : النبى الأمى الكريم ، وعلى آله وصحبه وسلم

الدكتور / أحمد محمد عبد الراضى

٨من ذى القعدة ١٤٢٣هـــ.

١١ يناير ٢٠٠٣م

تمهيد

المضمر بضم الميم الأولى، وفتح الثانية – اسم مفعول من أضمرته–إذا أخفيته،وسترته،وإطلاقه على البارز–توسع ،والضمير بمعنى المضمر على حد قولهم:عقدت العسل فهو عقيد،أى:معقود ، وهو اصطلاح بصرى ،والكوفية يسمونه كناية ومكنيا،لأنه ليس باسم صريح، والكناية تقابل الصريح [1]،ولا فرق بين المضمر والمكنى عند الكوفيين ،فهما من قبيل الأسماء المترادفة ،فمعناهما واحد–وإن اختلفا من جهة اللفظ ،وأما البصريون–فيقولون : المضمرات نوع من المكنيات،فكل مضمر –مكنى ،وليس كل مكنى–مضمرا،فالكناية–إقامة اسم مقام اسم تورية وإيجازا.[2]

وللمضمرات كلها –مبنية ويذكر ابن يعيش –أن علة البناء –أمران:

أحدهما –شبهها بالحروف من حيث إن الضمائر لا تستقل بذاتها،بل تفتقر إلى ما يفسر معناها ،وهو تقدم اسم ظاهر عليها،فأشبهت الحروف التى لا تستقل أيضا بنفسها ،بل تفتقر إلى ما يوضح معناها .

والآخر –أن المضمر كالجزء من الاسم ، وجزء الاسم –لا يستحق الإعراب [3] .

---

[1] –شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى :١/ ٩٥

[2] – شرح المفصل لابن يعيش :٨٤/٣

[3] – المرجع السابق : ٨٥/٣

والضمير -هو ما دل وضعا على متكلم : كـ(أنا)،أو مخاطب كـ(أنت)،أو غائب : كـ(هو)[٤]،وضميرا المتكلم ،والمخاطب - تفسدهما المشاهدة ،وأما ضمير الغائب-فعار عن المشاهدة،ولذا يحتاج إلى ما يفسره[٥].

وللضمير -دور أساسى فى بناء الجملة العربية ،حيث يربط أجزاء الكلام بعضه ببعض ،فيربط جملة الخبر -بالمبتدأ ،أو بما أصله المبتدأ ،ويربط جملة النعت-بالمنعوت ،وجملة الحال بصاحبها، وجملة الصلة بالموصول،والجمل المتعاطفة - بما تعطف عليه،كما أن للضمير قيمة لغوية تتعلق بالمعنى وهى رفع الالتباس، وتحقيق الإيجاز، يقول الرضى:" اعلم أن المقصود من وضع المضمرات - رفع الالتباس، فإن (أنا)-(أنت) -لا يصلحان إلا لمعنيين، وكذا ضمير الغائب -نص فى أن المراد هو المذكور بعينه فى نحو : (جاءنى زيد وإياه ضربت)،وفى المتصل يحصل مع رفع الالتباس- الاختصار ، وليس كذا الأسماء الظاهرة ،فإنه لو -سمى المتكلم والمخاطب بعينهما- فربما التبس ،ولو كرر لفظ المذكور مكان ضمير الغائب - فربما توهم أنه غير الأول"[٦]،لأن ذكر الضمير عائدا على الاسم الظاهر -يدل على أن هذا الظاهر المتقدم -هو المراد بالحديث ،كما

---

[٤] - شرح الفاكهى على قطر الندى : ١٨٤/١

[٥] - الهمع للسيوطى : ٦٥/١ ،والبيان فى روائع القرآن للدكتور تمام حسان ١٣٧/١، ١٣٨.

[٦] - شرح الكافية :٣/٢

نقــول : (محمد نجح أخوه)،أو(محمد نجح)، فإن عودة الضمير بارزا أو مســتترا -إلــى محمد - يبين أنه هو المقصود بالحديث ،ولكن إذا قــيل :(زيــد فعــل زيد)-جاز أن يتوهم أن زيدا الثانى -غير زيد الأول.[٧]

وبالضــمير -تــتعلق قضايا ومسائل كثيرة مبسوطة فى كتب النحو ، ليست غرضا من هذا البحث، ولكن ما يعنينا أن نرصد ما حدث فيه اخــتلاف بيــن الضمير ومرجعه -فى القرآن الكريم -ذاكرين أقوال النحاة والمفسرين فى سر هذا الاختلاف معقبين على هذه الأقوال بما نراه أرجح ،أو أقرب إلى التصور اللغوى .

---

[٧] - شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٨٤.

الفصل الأول

بين الضمير ومرجعه

الفصل الأول

بين الضمير ومرجعه

وقبل أن أذهب إلى تصيف الأسرار ،أو الحكم -التى من أجلها جاءت المخالفة بين الضمير ومرجعه مستشهدا على ذلك بما جاء فى القرآن الكريم- يجدر بى أن ألقى بعض الضوء -فى عجالة سريعة - على مرجع الضمير،وخاصة ضمير الغائب ،لما فيه من غموض وإبهام ،لأن ضميرى المتكلم والمخاطب-تفسدهما المشاهدة،وأما ضمير الغائب-فعار عن المشاهدة ،ولذا يحتاج إلى تفسير [٨]،قال الرضى :" وإنما يقتضى ضمير الغائب -تقدم المفسِّر عليه،لأنه وضعه الواضع معرفة - لا بنفسه ،بل بسبب ما يعود عليه ،فإن ذكرته، ولم يتقدمه مفسره- بقى مبهما منكرا لا يعرف المراد به حتى يأتى تفسيره بعده "[٩].

والأصل فى هذا الشىء المفسر الموضح أن يكون فى غير ضمير الشأن -متقدما على الضمير ومذكوراً قبله ، ليبين معناه أولا ، ويكشف المقصود منه ،ثم يجئ بعده الضمير مطابقا له -فيما يحتاج للمطابقة ،كالتأنيث والإفراد وفروعهما- فيكون خاليا من الإبهام والغموض،ويسمى ذلك المفسر الموضح -مرجع الضمير "[١٠].

---

[٨] - الهمع للسيوطى : ١/ ٦٥.

[٩] - شرح الكافية:٢/ ٥.

[١٠] - النحو الوافى للأستاذ عباس حسن :١/٢٥٦،٢٥٥.

ولمـــا كـــان الأصـــل فى مرجع الضمير أن يكون متقدما عليه -فإن الـــنحاة قد نظروا فى نوع هذا التقدم ،فحصروا له صور شتى يمكن تصـــنيفها إلى ثلاثة أقسام : تقدم لفظى ،وتقدم معنوى،وتقدم حكمى ، وفيما يلى نوضح المقصود من كل قسم :

أولا -التقدم اللفظى :

والمقصود بالتقدم اللفظى - أن يكون مرجع الضمير مصرحاً بـــه فى الكلام مذكورا قبل الضمير،كما فى قوله تعالى:" واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا "[11]،فقد عاد الضـــمير فى (إنه)،وفى (كان)- إلى (إسماعيل)- عليه السلام،وهو مـــتقدم فـــى اللفـــظ والرتبة ،وقد قسم ابن الحاجب- التقدم اللفظى - قسمين:

أحدهما -متقدم لفظا تحقيقا ،نحو:(ضرب زيد غلامه)

والآخـــر -مـــتقدم لفظا تقديرا ،نحو :(ضرب غلامَه زيد)،إذ (زيد)- متقدم فى اللفظ تقديرا،لكونه فاعلا،غير أن الرضى اعترض على ابن الحاجـــب فى جعله نحو (ضرب غلامَه زَيد)-من قبيل التقدم اللفظى الـــتقديرى ، وقال :" فجعل نحو:(ضرب غلامَه زيد)مما تقدم معنى - أولى ،إذ متقدم معنى وتقديرا لا لفظا"[12].

---

[11] - مريم :٥٤

[12] -شرح الكافية :٤/٢

وإذا كـــان مرجع الضمير مذكور مصرحا به- فإن الضمير يعـــود على أقرب مذكور -فى الأصل،يقول الرضى :" واعلم أنه إذا تقـــدم ممـــا يصلح للتفسير -شيئان فصاعدا -فالمفسر هو الأقرب لا غـــير، نحو :(جاءنى زيد وبكر فضربته)،أى(ضربت بكرا)،ويجوز مع القرينة أن يكون للأبعد ،نحو :(جاءنى عالم وجاهل فأكرمته)[١٣]، ويـــدل على ذلك -قولـــه تعالى : "ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فـــى ذريته النبوة والكتاب " [١٤].فإن الضمير فى (ذريته)- يعود على (إبراهيم)-عليه السلام ،وهو غير الأقرب ،لأنه المحدث عنه من أول القصة إلى آخرها .[١٥].

ونخلـــص من ذلك إلى أن التقدم اللفظى لمرجع الضمير -أن يكـــون هـــذا المـــرجع الذى يسمى مفسرا للضمير مقدما عليه لفظا ورتبة، كما فى قوله تعالى :"وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى "[١٦]،أو لفظا دون الرتبة، كما فى قوله تعالى :"وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ "[١٧]،وقوله تعالى : " لا يَـــنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا "[١٨]وقوله تعالى :" أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"[١٩] ،

---

[١٣] – شرح الكافية :٢/ ٤

[١٤] – العنكبوت : ٢٧.

[١٥] – الهمع للسيوطى : ١/ ٦٥

[١٦] ––طه : ١٢١

[١٧] البقرة :١٢٤.

[١٨] – الأنعام : ١٥٨.

[١٩] – محمد : ٢٤.

وأن يكـــون هـــذا المرجع -أقرب مذكور لهذا الضمير ،لا يعود إلى الأبعد إلا إذا دل السياق على ذلك .

ثانيا -التقدم المعنوى :

والمقصود بالتقدم المعنوى لمرجع الضمير -أن لا يكون هذا المرجع أو المفســـر -مصرحا بتقديمه ،بل هناك شيء آخر غير ذلك الضمير يقتضى كون المفسر قبل موضع الضمير [٢٠]،

وقد قسم النحاة التقدم المعنوى -أقساما متعددة ،نبينها فيما يلى :

١- **الرتـــبة** بمعـــنى أن الضمير يعود على متأخر فى اللفظ ،ولكنه مقـــدم فـــى الرتبة ،وقد جعل الرضى هذه الصورة من قبيل التقدم المعـــنوى علـــى حين جعلها ابن الحاجب -من قبيل التقدم اللفظى التقديرى ،وذلك كمعنى الفاعلية المقتضى كون الفاعل قبل المفعول رتـــبة ، نحو:(ضرب غلامه زيد)،ومعنى الابتداء المقتضى كون المبـــتدأ قـــبل الخبر ،نحو :(فى داره زيد)، ومعنى المفعول الأول المقتضـــى تقدمـــه على الثانى، نحو (أعطيت درهمه زيدا)،وكذا نحو: (ضربت فى داره زيدا)[٢١]،ومن ذلك -قوله تعالى :" فأوجس فـــى نفسه خيفة موسى " [٢٢]،وقوله تعالى :" ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون"[٢٣] وقد عد ابن الشجرى ذلك -من قبيل توجيه الضمير

---

[٢٠] – شرح الكافية : ٤/٢

[٢١] – شرح الكافية :٢/ ٤، ٥

[٢٢] – طه : ٦٧

[٢٣] – القصص : ٧٨

- إلى متأخر فى اللفظ ،متقدم فى الرتبة [٢٤]، ولم يشر إلى اعتباره تقدما معنويا.

٢- دلالة الحس عليه،وقد جعل السيوطى من ذلك -قوله تعالى :" قال هى راودتنى عن نفسى "[٢٥]، وقوله تعالى " قالت إحداهما ياأبت استأجره "[٢٦] فإن الضمير :(هى)-يعود على _زليختا)،والضمير فى (استأجره) -يعود على (موسى)عليه السلام ،ولم يتقدم التصريح بكل منهما،لكونهما حاضرين "[٢٧] .

٣- أن يكون المرجع -جزء مدلول الفعل ،بمعنى أن يعود الضمير على ما يتضمنه اللفظ المتقدم،نحو قوله تعالى :" اعدلوا أقرب للتقوى "[٢٨]،أى :(العدل)-الذى هو جزء مدلول الفعل ،لأن الفعل (اعدلوا)- يدل على الحدث والزمن [٢٩]،ومن ذلك -قوله تعالى : "وإن تشكروا يرضه لكم"[٣٠]،فالهاء عائدة على (الشكر)،ولم يتقدم ذكر الشكر ،وإنما تقدم ما يقتضيه ،لأن الفعل يقتضى الحدث ، فالفعل :(تشكروا) -يقتضى (الشكر)[٣١]ومن ذلك -قوله تعالى :" ولا

---

[٢٤] - أمالى ابن الشجرى : ٨٩/١

[٢٥] -يوسف :٢٦.

[٢٦] - القصص : ٢٦

[٢٧] - الهمع : ٦٥/١

[٢٨] - المائدة :٨.

[٢٩] - الهمع : ١/ ٦٥ ،وحاشية الصبان على الأشمونى : ١/ ١٠٨

[٣٠] - الزمر :٧

[٣١] - البسيط فى شرح الجمل لابن أبى الربيع ١/ ٣٠٣ ،٣٠٤ .

يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم. "[٣٢] فقد جعل الفراء الضمير فى قولـــه تعالى :(هو خيرا لهـــم)- راجعا على (البخل) المدلول عليه بالفعل (يبخلون)،وذلك على القراءة بتاء الخطاب فى (تحسبن)،قال :" فـــ(هو)- كناية عن الـــبخل ،فهـــذا لمن جعل(الذين)فى موضع نصب ،وقرأ (تحسبن) بالتاء، ومن قرأ بالياء -جعل (الذين) فى موضع رفع ،وجعل (هو) عمـــاداً للـــبخل المضـــمر،فاكتفى بما ظهر فى (يبخلون) من ذكر الـــبخل "[٣٣] والقـــراءة بتاء الخطاب -لحمزة،ووافقه المطوعى[٣٤]، واستشـــهاد الرضى -أدق من استشهاد الفراء،إذ لا يحتمل الضمير فى (بل هو)-إلا أن يكون راجعا على البخل المدلول عليه بالفعل (يبخلون)،أما الضمير فى(هو خيرا لهم)-فيحتمل أن يكون ضمير فصـــل على القراءتين ، لأن المفعول الأول على قراءة الجمهور بالـــياء - محذوف ،والتقدير (ولا يحسبن الباخلون بخلهم هو خيرا لهم)، وعلى القراءة بالتاء - يكون ضمير فصل أيضا بين المفعول الأول الـــذى هو المضاف المحذوف ،والمفعول الثانى -الذى هو (خيرا)، والتقدير (ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيرا لهم)[٣٥].

---

[٣٢] – آل العمران : ١٨٠

[٣٣] – معانى القرآن :١/ ١٠٤.

[٣٤] – إتحاف فضلاء البشر :١٨٢

[٣٥] – راجع تفسير القرطبى:٢/ ١٦٣

وقــد استشهد ابن الشجرى على عود الضمير على المصدر المدلول عليه بالفعل -بقولــه تعالى: "ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم"[٣٦]، أى: (لكــان الإيمان) ،وبقوله تعالى :" الذين قال لهم الناس إن الناس قــد جمعــوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا "[٣٧]،أى :(فزادهم قول الناس إيمانا)[٣٨] .

وقد جعل الزجاج من ذلك -قوله تعالى :" فقد كذبتم فسوف يكون لزاما "[٣٩]،فقال :" وتأويله -والله أعلم -فسوف يكون تكذيبكم لزاما"[٤٠].

وقــد تعــرض الدكــتور تمام حسان لهذه المسألة وهى عود الضــمير على المصدر المتصيد من الكلام ،وقد ساق استشهادا على ذلــك -قولــه تعالى :" وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم"[٤١]، أى :(فالإخفــاء)[٤٢] ،وقولــه تعالى :" فإن تبتم فهو خير لكم"[٤٣]، أى: (فالتوب خير لكم)،وقوله تعالى:"ولئن صبرتم لهو خير للصابرين"[٤٤]،

---

[٣٦] – آل العمران:١١٠

[٣٧] –آل العمران : ١٧٣

[٣٨] – أمالى ابن الشجرى :٨٢/١، ٣٧/٢

[٣٩] – الفرقان :٧٧

[٤٠] – معانى القرآن وإعرابه : ٧٨/٤

[٤١] –البقرة : ٢٧١

[٤٢] – الكشاف : ١/ ٣١٦

[٤٣] – التوبة :٣

[٤٤] – النحل : ١٢٦

أى:(لصبرهم)،أو (للصبر)[٤٥]،وقوله تعالى:"ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه "[٤٦]،أى :(فالتعظيم)[٤٧]،ثم عقب الدكتور تمام حسان على ذلك -بقوله :" وهكذا نرى المصدر المتصيد يعود عليه ضمير الغائب -فى الآيات السابقة ،وفى كل ذلك -لم يذكر صراحة " [٤٨].

هذا بعض ما ذكره النحاة والمفسرون من مواضع عود الضمير على جزء مدلول الفعل ،وهو المصدر ، لأن الفعل -يدل على المصدر والزمن ،وهذا ضرب من الإيجاز-الذى هو سمة من سمات الإعجاز القرآنى،فإن قوله تعالى : -مثلا "وإن تشكروا يرضه لكم" فيه إيجاز بليغ حيث يعود الضمير على الشكر،ولو لم يراع الإيجاز- لقيل فى غير القرآن :(وإن تشكروا فالشكر يرضاه الله لكم)،وكذا فى كل موضع يعود فيه الضمير على المصدر المدلول عليه بالفعل،وهو فى الحقيقة -محذوف كنى عنه بالضمير اختصارا .

٤- أن يذكر في الكلام ما يستلزم المرجع استلزاما قريبا،كما فى قوله تعالى :"ولأبويه لكل واحد منهما السدس" [٤٩]،فإن الضمير فى (أبويه)،- يعود على (الميت)،حيث تستلزمه قرينه ذكر الإرث،أو

---

[٤٥] - الكشاف : ٢/ ٦٤٥

[٤٦] - الحج :٣٠

[٤٧] - الكشاف : ٣/ ١٥٤

[٤٨] - البيان فى روائع القرآن : ١/ ١٥٠

[٤٩] -النساء:١١.

اســتلزاما بعيدا ،كما فى قوله تعالى :" حتى توارت بالحجاب"[٥٠]،أى: (الشمس)-على قول -بقرينة ذكر (العشى)[٥١].وقد عبر ابن الشجرى، وغــيره -عن هذا الموضع- بأن الضمير يرجع إلى معلوم قام- لقوة العلــم به وارتفاع اللبس فيه بدليل لفظى أو معنوى -مقام تقدم الذكر لــه، فأضــمروه اختصــارا ،أو ثقة بفهم السامع،كقوله تعالى: "حتى تــوارت بالحجاب "،فأضمر (الشمس)،لدلالة ذكر (العشى)عليها ،من حيــث كان ابتداء العشى بعد زوال الشمس ،ومثله قولــه تعالى:" إنا أنزلــناه فــى ليلة القدر"[٥٢] ،فأضمر (القرآن)،لأن ذكر الإنزال -دل عليه،ومثله قــوله تعالى:" فلولا إذا بلغت الحلقوم"[٥٣] ،وقولــه تعالى: " كــلا إذا بلغت التراقى "[٥٤] فأضمر (النفس)- فى الموضعين لدلالة ذكر (الحلقوم)،و(التراقى)-عليها[٥٥]،ومما عاد فيه الضمير إلى معلوم قد تقرر فى النفس، وارتفع به اللبس قوله تعالى :" ما ترك عليها من دابــة "[٥٦]،فقد عاد الضمير فى (عليها)-إلى (الأرض)،وهى مفهومة مــن الســياق [٥٧]،وكــذا قولــــه تعالى:" ما ترك على ظهرها من

---

[٥٠] – ص: ٣٢.

[٥١] – حاشية الصبان على الأشمونى :١٠٨/١

[٥٢] – القدر :١

[٥٣] – الواقعة :٨٣

[٥٤] – القيامة : ٢٦

[٥٥] – أمالى ابن الشجرى : ٩٠/١، ٣/ ١١٧

[٥٦] – النحل :٦١

[٥٧] – أمالى ابن الشجرى : ٢/ ٥٠٣

دابة"[٥٨]،"كل من عليها فان"[٥٩]،فإن ذكر الدابة مع ذكر (على ظهرها)- دال علـــى أن المراد ظهر الأرض ،وكذا الفناء مع لفظة(على)، وكذا قوله تعالى :" وإن كانت واحدة فلها النصف"[٦٠]،أى: إن كانت الوارثة واحـــدة،إذ الســـياق فـــى بيان الوارث [٦١]، ومما دل السياق فيه على مرجع الضمير-قوله تعالى :" وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين -ففهمناها سليمان"[٦٢]،قال الزمخشـــرى فـــيما يعـــود عليه الضمير فى (فهمناها):" للحكومة أو الفتوى"[٦٣]،وقال القرطبى :"أى: فهمناه القضية والحكومة ،فكنى عنها، إذ سبق ما يدل عليها"[٦٤].

ومما دل فيه السياق والمعنى -على مرجع الضمير-قوله تعالى :" فلا أقسم بالخنس -الجوار الكنس -والليل إذا عسعس -والصبح إذا تنفس -إنه لقول رسول كريم -ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين ومـــا صاحبكم بمجنون -ولقد رآه بالأفق المبين -وما هو على الغيب بضنين -وما هو بقول شيطان رجيم - فأين تذهبون -إن هو إلا ذكر

---

[٥٨] - فاطر :٤٥.

[٥٩] - الرحمن:٢٦.

[٦٠] - النساء : ١١

[٦١] - شرح الكافية : ١/٢

[٦٢] - الأنبياء : ٧٨، ٧٩

[٦٣] - الكشاف : ٣/ ١٢٨

[٦٤] - تفسير القرطبى : ٦/٤٤٨

للعالمين .لمن شاء منكم أن يستقيم "[٦٥]، فقد تكرر ضمير الغائب فى هذه الآيات ،وذلك فى قوله :(إنه)،(رآه)،(وما هو)،(إن هو)- دون أن يتقدم عليه مرجعه،وإنما دل السياق على المرجع-بالإشارة إليه بعد الضمير،كما فى قوله : (مجنون)،(بالأفق) ، (ضنين) ،(قول)، (ذكر)،فكل كلمة من هذه الكلمات -تشير إلى المقصود بالضمير "[٦٦].

فالضمير فى (إنه)-للقرآن ،وفى (رآه)-للرسول - صلى الله عليه وسلم ،ولجبريل -عليه السلام- والمعنى :(رأى محمد جبريل - عليهما الصلاة والسلام)،و(ما هو)-للرسول -صلى الله عليه وسلم ، و(وما هو بقول)للقرآن ،وكذلك الضمير فى (إن هو)[٦٧].

ومما دل فيه السياق والمعنى على مرجع الضمير -قوله تعالى: "فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان"[٦٨]،قال العكبرى -فى بيان مرجع الضمير فى (إليه): "أى: إلى ولى المقتول"[٦٩] ،ويوضح أبو حيان مرجع الضمير ،فبين أنه العافى، وهو مفهوم من قوله تعالى :" فمن عفى " ،لأن فى (عفى)- دلالة على العافى ،فيكون نظير قوله تعالى :" حتى توارت بالحجاب"[٧٠]،إذ فى (العشى)-دلالة على نظيره:(الشمس)[٧١].

---

[٦٥] التكوير : ١٥ / ٢٨

[٦٦] -البيان فى روائع القرآن للدكتور تمام حسان : ١٥٠/١

[٦٧] - تفسير النسفى : ٤/ ٣٣٦ ، ٣٣٧

[٦٨] - البقرة : ١٧٨.

[٦٩] - إملاء ما من به الرحمن : ١/ ٧٨

[٧٠] - ص: ٣٢

[٧١] - البحر المحيط : ١٤/٢ ،وراجع الهمع للسيوطى : ٦٥/١، ٦٦

ومما تعددت فيه أقوال النحاة والمفسرين- حول مرجع الضمير - قوله تعالى:" والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير "[٧٢]وقال أبو البقاء العكبرى :" الهاء تعود على النصر ،وقيل :على الولاء والتأمر" [٧٣]،وقال النسفى :" إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضا "[٧٤]،وقال أبو حيان :" الضمير المنصوب فى (تفعلوه)-عائد على الميثاق ،أى : على حفظه ،أو على النصر،أو على الإرث، أو على مجموع ما تقدم"[٧٥]،ويرجع تعدد الأقوال -فى مرجع الضمير هنا -إلى أن الآية السابقة -تحتمل كل هذه الأقوال - وهى قوله تعالى:" إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولا يتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير"[٧٦] .

ومما يحتمل فيه عود الضمير على ما يفهم من السياق -قوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن

---

[٧٢] -الأنفال :٧٣

[٧٣] إملاء ما من به الرحمن :١١/٢

[٧٤] - تفسير النسفى :١١٣/٢

[٧٥] - البحر المحيط : ٤/ ٥٢٢

[٧٦] - الأنفال :٧٢

تكـــون تجارة عن تراض منكم "[٧٧]،قال العكبرى : "(تجارة)-بالرفع على أن (كان)- تامة ،وبالنصب على أنها الناقصة،والتقدير: (إلا أن تكـــون المعاملـــة،أو الـــتجارة -تجارة)،وقيل :تقديره -(إلا أن تكون الأموال -تجارة)[٧٨]،وعلى القول بأن مرجع الضمير -(الأموال)-يكون المـــرجع مصرحا به،وعلى قراءة الرفع -يكون التقدير (إلا أن تقع تجـــارة)،ومـــن ثم لا ضمير فيها ،أما على قراءة النصب -فإن اسم (تكـــون)-وهـــو الضـــمير المســـتتر فى حاجة إلى مرجع،وقد قدره الزمخشرى وغيره:(إلا أن تكون التجارة تجارة)"[٧٩] ،والرفع -قراءة ابـــن كثـــير،ونافع،وأبى عمرو،وابـــن عامر،والنصـــب قراءة حمزة والكسائى وعاصم [٨٠].

وتجـــدر الإشـــارة إلـــى أن الاســـتثناء فى هذه الآية على القراءتيـــن - مـــنقطع،لأن التجارة عن تراض -ليست من أكل أموال الناس بالباطل .[٨١]

هـــذه بعض المواضع -فى القرآن الكريم- التى لم يذكر فيها مرجع الضـــمير صـــراحة ،بل دل عليه المعنى،ولذلك عدوه من قبيل التقدم المعـــنوى لمـــرجع الضـــمير ،وقد رأينا أن للتقدم المعنوى-صورا

---

[٧٧] – النساء : ٢٩.

[٧٨] – إملاء ما من به الرحمن :١/ ١٧٧

[٧٩] – الكشاف : ٥٠٢/١،وتفسير النسفى ٢٢١/١

[٨٠] – الحجة فى علل القراءات السبع لأبى على الفارسى : ٣١/٣

[٨١] –المرجع السابق.

متعددة، وهى الرتبة ،ودلالة الحس عليه،ودلالة الفعل المذكور عليه: بـــأن يكـــون مصدرا مفهوما من هذا الفعل ،ودلالة السياق عليه: بأن يســـتلزمه السياق استلزاما قريبا أو بعيدا أو مفهوما من السياق العام وفـــى هذا كله تنوع ،وعمق فى معطيات النص القرآنى ،كلما كثرت الاحـــتمالات فـــى تفســـير النص،كثر العطاء الدلالى والمعنوى،ولا تـــناقض أو تعارض بين ما رأيناه حول مرجع الضمير -فيما ذكرناه مـــن آيـــات ،بل تتضافر وتتعاون هذه الاحتمالات فى إثراء المعنى وتنويعه .

ثالثا -التقدم الحكمى :

والمقصـــود بالتقدم الحكمى-كما يقول الرضى :" أن يكون المفسر - مؤخراً لفظا،وليس هناك ما يقتضى تقدمه على محل الضمير-إلا ذلك الضـــمير ،فتقول :إنه -وإن لم يكن متقدما على الضمير لا لفظا ولا معـــنى -إلا أنه فى حكم المتقدم-نظرا إلى وضع ضمير الغائب"[٨٢] ، وهذا الضمير -هو المجهول الذى يلزمه التفسير -إما بالجملة ، وإما بالمفـــرد المنصوب،فالمفســـر بالجملـــة -ضمير الشأن فى نحو قوله تعـــالى: " قل هو الله أحد "[٨٣]،وضمير القصة فى نحو قولـــه تعالى: "فـــإذا هـــى شاخصـــة أبصـــار الذين كفروا "[٨٤]،والمفسر بالمفرد

---

[٨٢] - شرح الكافية :٢/ ٥

[٨٣] - الإخلاص :١

[٨٤] - الأنبياء:٩٧

المنصوب نحو قوله تعالى :-"بئس للظالمين بدلا"[٨٥]،فالأصل : (بئس البدل)[٨٦]،وقد ذكر ابن أبى ربيع -أربعة أبواب يعود فيها الضمير على متأخر لفظا ورتبة ،وهى ضمير الشأن أو القصة، والضمير فى باب (نعم)،و(بئس)،وفى باب الإعمال -يريد التنازع - إذا أعمل الثانى ،والأول يطلب عمدة ،نحو: (ضربنى وضربت زيدا)، والضمير فى (ربه رجلا)،ثم يعقب على هذه الأبواب الأربعة -بقوله :" وهذا خارج عن القياس ،فلا يقاس على هذه الأبواب الأربعة - غيرها"[٨٧]،وزاد ابن هشام ثلاثة مواضع أخرى ، وهى :أن يكون مخبرا عنه بما يفسره ،نحو قوله تعالى: "وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا"[٨٨]"،فالتقدير (إن الحياة إلا حياتنا الدنيا)،وأن يكون مبدلا منه -اسم ظاهر ،نحو : (رأيته زيدا)،وأن يكون متصلا بفاعل مقدم ، حيث يفسره المفعول المؤخر،نحو : (ضرب غلامُه زيدا)،وذلك على مذهب الأخفش،وابن جنى ،وأبى عبد الله الطوال من الكوفيين .[٨٩]

هذه هى صور تقدم مرجع الضمير الثلاث :وهى -التقدم اللفظى ، والتقدم المعنوى ،والتقدم الحكمى ،وقد عرضنا لكل صور منها نماذج من القرآن الكريم،وبينا آراء النحاة والمفسرين حولها،وما تكشف عنه من وجوه الإعجاز فى النص الكريم .

---

[٨٥] - الكهف :٥٠

[٨٦] - أمالى ابن الشجرى :١/٩١، ٩٢

[٨٧] - البسيط فى شرح الجمل : ١/ ٣٠٣

[٨٨] - الأنعام :٢٩

[٨٩] - مغنى اللبيب : ٢/٥٦٢ :٥٦٦

الفصل الثاني

من أسرار المخالفة بين الضمير ومرجعه

الفصل الثانى

من أسرار المخالفة بين الضمير ومرجعه

هـذا هـو القسـم الـثانى من قسمى البحث ،وفيه نتناول ما ظاهره المخالفـة بيـن الضمير ومرجعه- فى القرآن الكريم ،موضحين سر هـذه المخالفـة،وما لها من أثر فى تنوع الأسلوب ،وعمق الدلالة ، وذلـك بعـد أن عالجنا فى القسم الأول- قضايا مرجع الضمير ،من حيـث التصـريح به،وحذفـه ،لدلالة المعنى والسياق عليه، وسوف نعـرض بعـض ما ورد فى القرآن الكريم مما ظاهره المخالفة بين الضمير ومرجعه.

وقـد تتخذ هذه المخالفة صورا شتى ، فقد نرى ضمير المفرد المذكـر – يعود على ما ينبغى تأنيثه، وقد نرى ضمير المفرد-يعود علـى المثـنى،كما نـرى ضمير الجمع يعود علي المثنى،كما نرى ضـمير الجمع يعود على المفرد أو المثنى،وهكذا تتنوع المخالفة بين الضمير ومرجعه-فى القرآن الكريم،وسوف نرى -إن شاء الله تعالى -أن مـا نراه مخالفة -فى الظاهر- هو فى الحقيقة مطابقة بوجه من الوجوه،ولـيس شىء منها خارجا عن قواعد اللغة،وعن سنن العرب فى البيان والتعبير،بل نرى من وراء هذه المخالفة-أسرارا كامنة تدل على الإعجاز القرآنى .

وسوف ننتهى إلى أن شرط المطابقة بين الضمير ومرجعه - فى القرآن الكريم -متحقق ، غير أن التميز فى الأسلوب القرآنى - يقتضى ما نراه من هذه المخالفة،ونحن نعلم أن شرط الإضمار -أن يكون بين الضمير ومرجعه- مطابقة فى اللفظ والقصد،بحيث لو عدلنا عن الإضمار إلى الإظهار -لحصلنا على اللفظ نفسه،وعلى المدلول نفسه ،أى :لو كان لدينا جملة مثل :(ذهب زيد إلى بيته)، فسأل سائل :(بيت من ؟) كان الجواب .(بيت زيد المذكور)،فحل (زيد) المذكور - محل الضمير دالا على ما دل عليه الضمير .[٩٠] .

وليس هدف البحث -إحصاء كل ما ورد فى القرآن مما ظاهره المخالفة بين الضمير ومرجعه، بل حسبنا من ذلك -ما نقيم به الدليل على الكشف عن الأسرار اللغوية الكامنة وراء هذه المخالفة ،وبيان ما للأسلوب القرآنى من خصائص ومميزات ،وفيما يلى نحاول تصنيف صور المخالفة بين الضمير ومرجعه :

مراعاة المعنى

وهنا نتناول بعض الكلمات التى لفظها يخالف معناها إفرادا وتثنية وجمعا،أو تذكيرا وتأنيثا،فقد يكون لفظ الكلمة مفردا،ولكنها تدل على مثنى أو جمع،وقد يكون لفظها مذكرا،ولكنها تدل على مؤنث ،وإذا عاد الضمير إلى مثل هذه الكلمات -فقد يراعى معناها،فيعود الضمير

---

[٩٠] - البيان فى روائع القرآن للدكتور تمام حسان : ١٣٨/١

إلـيها مؤنـثا،أو مجموعا،ومـن هـذه الكلمات :(مَن)-التى تستعمل موصـولة،أو شـرطية ،أو نكرة موصوفة ،فإننا نرى الضمير تارة يعـود علـيها مفـردا مذكرا،وتارة مفردا مؤنثا ،وتارة مجموعا،قال سـيبويه :"هـذا باب إجرائهم صلة(مَن)،وخبره - إذا عنيت اثنين - كصلة(اللذين)،وإذا عنيت جميعا-كصلة (الذين).

فمـن ذلك -قوله -عز وجل ":ومنهم من يستمعون إليك"[٩١]،ومن ذلك قول العرب -فيما حدثنا يونس:(مَن كانت أمّك)،و(أيهن كانت أمّك)- ألحـق تاء التأنيث لما عنى مؤنثا،كما قال :(يستمعون إليك)حين عنى جمـيعا، وزعـم الخليل -رحمه الله -أن بعضهم قرأ: " ومَن تقنت منكن لله ورسوله "[٩٢]"،فجعلت كصلة (التى)-حين عنيت مؤنثا ،فإذا ألحقت التاء فى المؤنث- ألحقت الواو والنون فى الجميع "[٩٣].

فقـد بين سيبويه -أن الضمير -قد يعود على (من)مؤنثا-إذا قصد بها المؤنـث،وقد يعـود عليها مجموعا -إذا قصد بها الجمع ،أما القراءة الـتى رواها الخليل -بتأنيث (تقنت)-فليست من القراءات السبع ،قال ابـن مجـاهد:"قرأ ابن كثير،ونافع ،وأبو عمرو،وابن عامر،وعاصم: (يقنـت)-بالـياء،و(تعمـل)- بالتاء ،(ونؤتها)- بالنون،وقرأ حمزة، والكسـائى -كـل ذلـك بالـياء،ولم يختلف الناس فى(يقنت)-أنها

---

[٩١] - يونس :٤٢

[٩٢] -الأحزاب :٣١.

[٩٣] -الكتاب : ٢/٤١٥، ٤١٦

بالياء"[٩٤]،ولكن القرطبى نسبها إلى يعقوب[٩٥]،ولم يذكرها ابن جنى فى الشواذ،بل ذكر القراءة بالتاء -فى قوله تعالى :" يا نساء النبى من تأت منكن"[٩٦] ،ونسبها إلى عمرو بن فائد الأسوارى ،ورويت عن يعقوب،ثم قال " هذا حمل على المعنى،كأن (من)هنا -امراة فى المعنى ،فكأنه قال (أية امرأة أتت منكن بفاحشة ،أو تات بفاحشة "[٩٧] فقد عاد الضمير -فى هاتين الآيتين -على (من) الشرطية -مؤنثا ، مراعاة لمعناها ،كما عاد إليها الضمير مذكرا أيضا ،مراعاة للفظها،ولا فرق فى ذلك بين (من)الموصولة،والشرطية،والنكرة الموصوفة،إذ هى -فى الحالات الثلاث -لفظ مفرد عام يطلق على الواحد والمثنى والجمع،وعلى المذكر والمؤنث .

ومن ذلك - قوله تعالى :" ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين "[٩٨] قال أبو بكر بن الأنبارى :" إذا قلت : (مِن الرجال مَن يقوم)-كان لك ثلاثة أوجه :(من الرجال من يقوم)، و(منهم من يقومان)،و(منهم من يقومون)،وإذا وحدت (يقوم)-فلك فى (من) ثلاثة معان :يجوز أن تكون فى معنى واحد- فأخرج (يقوم)على اللفظ والمعنى،ويجوز أن تكون فى معنى اثنين،وفى معنى

---

[٩٤] - السبعة فى القراءات : ٥٢١ .

[٩٥] - تفسير القرطبى :٨/٥٤٤٥.

[٩٦] - الأحزاب :٣٠.

[٩٧] - المحتسب :٢/١٧٩.

[٩٨] -البقرة :٨.

جمع،فأخـــرج الفعل على لفظها ،ولم يخرج على معناها"،ثم استشهد بقوله تعالى :" ومنهم من يستمعون إليك"[٩٩]فبين أن الفعل أخرج على معـــناها -يعنى عاد الضمير فيه على معنى (من)،ثم استشهد بقولـــه تعالى:" ومنهم من ينظر إليك"[١٠٠]-يريد أن الضمير فى ينظر)- يعود علـــى لفظ (من)[١٠١]،وقال العكبرى -عند إعرابه لقوله تعالى :" ومن الـــناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين " :" و(من) موحـــدة اللفـــظ وتستعمل فى التثنية .،والجمع ، والتأنيث -بلفظ واحد، والضـــمير الراجع إليها -يجوز أن يفرد حملا على لفظها ،وأن يثنى، ويجمـــع ،ويؤنـــث -حملاً على معناها،وقد جاء -فى هذه الآية- على الوجهيـــن ،فالضـــمير فـــى (يقـــول)-مفـــرد وفـــى (آمنا)،و(هم)- جمـــع"[١٠٢]،وتجدر الإشارة إلى أن (من)-هنا -نكرة موصوفة،وجملة (يقـــول)-صـــفة لها ،ويضعف أن تكون بمعنى (الذى)،لأن(الذى)- يتـــناول أقواما بأعيانهم،والمعنى هاهنا -على الإبهام، والتقدير (ومن الناس فريق يقول)"[١٠٣].

وخلاصـــة الأمـــر أن (مـــن)-موصولة كانت ،أو شرطية ،أو نكرة موصـــوفة-يجـــوز أن يعود الضمير عليها مفردا مذكرا،حملا على

---

[٩٩] – يونس :٤٢

[١٠٠] – يونس :٤٣

[١٠١] – المذكر المؤنث : ٢/٢٦٢/ ٢٦٣

[١٠٢] – إملاء ما من به الرحمن : ١/ ١٦

[١٠٣] – المرجع السابق

لفظهـــا،ويجوز أن يعود عليها مفردا مؤنثا،أو مثنى،أو مجموعا،حملا علـــى معناها،وكثـــيرا ما يراعى الأمران فى القرآن الكريم،كما فى قولـــه تعالى :" مَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون"[١٠٤]،وقوله تعالى:"بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحـــزنون "[١٠٥]،وقوله تعالى: "ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون"[١٠٦]، ومـــثل هـــذا كثير فى القرآن الكريم ،وقد يراعى معناها فقط،كما فى قولـــه تعالى : " ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلـــك[١٠٧]" ،فقد عاد الضمير – فى هذه الآية –إليها –على الجمع حملا على المعنى.[١٠٨].

وعـــود الضمير على معنى اللفظ –فى القرآن الكريم أمر شائع ،ولم يقتصـــر على (مَن) وحدها ،بل هناك كلمات كثيرة يختلف لفظها عن معناها أو مضمونها ،من حيث التأنيث والتثنية والجمع،فقد نجد كلمة لفظهـــا مفـــرد مذكر،ولكن يعود الضمير إليها جمعا،وقد يكون لفظها مثنى ،ويعود الضمير إليها جمعا كذلك،وقد يكون لفظها مفردا مؤنثا ،

---

[١٠٤] – البقرة :٦٢

[١٠٥] – البقرة : ١١٢

[١٠٦] – الحجرات : ١١

[١٠٧] – الأنبياء :٨٢

[١٠٨] – راجع المقتضب للمبرد: ٣/ ٢٥٢ ،٢٥٣،وأمالى ابن الشجرى: ٢/ ٤٠ ، ٤١ ، ٣ /٦٣، ٦٤، وتفسير النسفى : ٤/ ١٧١.

ويعود الضمير عليها مفردا مذكرا،أو جمعا،بل قد يكون لفظها جمعا، ويعود الضمير إلى مفردها ،وهكذا فإن مراعاة المعنى فى إعادة الضمير،أو فى مرجعه- أمر شائع فى اللغة ،ولا غرابة فيه، بل يدل على سعة أفق اللغة العربية وتنوع أنماطها التعبيرية،ولنذكر توضيحا لما ذكرناه -نماذج من القرآن الكريم .

ومما عاد فيه الضمير إليه مجموعا مراعاة لمعناه،لأن لفظه مفرد -ما يلى:

١-قو له تعالى :" ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات "[١٠٩]، فقد جمع ضمير المؤنث فى (سواهن)،وهو يعود على (السماء)، ولفظها مفرد مؤنث ،وقد أوضح الفراء والزجاج وابن الشجرى والعكبرى والسمين الحلبى- علة ذلك بأن (السماء - في معنى جمع، ويجوز أن تكون (السماء) - جمعا ، كما أن (السماوات) -جمع، كأن واحده (سماءة) ويقيس ابن الشجرى - على قولهم (حمام)، و(حمامة)، و(سحاب)،و(سحابة)،ويستدل على ذلك بأن لفظ (السحاب)-قد استعمل جمعا،فى قوله تعالى :" وينشئ السحاب الثقال"[١١٠]،وإن كان جاء وصفه بالواحد فى قوله تعالى: " والسحاب المسخر بين السماء والأرض "[١١١]،فالسحاب ،والحمام،والنخل ،

---

[١٠٩] - البقرة :٢٩.

[١١٠] - الرعد :١٢.

[١١١] - البقرة : ١٦٤.

والشجر ،وما أشبههن.مما وقع الفرق بينه وبين واحده -بتاء التأنيث - فليست بجموع حقيقة ،وإنما هن -أسماء للجمع ،فذلك يجوز فيه - التذكير والتأنيث ،وقد أستشهد ابن الشجرى-على ذلك -بهذه الآية ، وبقوله تعالى:" فقضاهن سبع سماوات "[١١٢]،بعد قوله :" ثم استوى إلى السماء وهى دخان "[١١٣]،وبذلك يجعلون لفظ (السماء)-من قبيل اسم الجنس الجمعى، فيعامل معاملة المفرد،ومعاملة الجمع [١١٤]،وقد رجح الزمخشرى أن يكون (سبع سماوات)-تفسيرا للضمير -يعنى تمييزا ، فالضمير- على هذا -مبهم،لا مرجع له ونظيره:(ربه رجلا)،وقد عقب الزمخشرى -بعد أن ذكر الأقوال الأخرى -بقوله:" والوجه العربى -هو الأول "[١١٥]،ونحن نرى أن ما ذهب إليه الفراء،والزجاج، وابن الشجرى،والعكبرى والسمين الحلبى،وغيرهم - هو الأصح والأقيس- فى العربية ،لأن استعمال اسم الجنس الجمعى جمعا، بحيث يعود الضمير على معناه-أمر شائع فى القرآن الكريم،وفى كلام العرب،وأما عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة-فهو مسموع فى مواضع محددة،ولا يقاس عليها، وحمل الشىء على المقيس -أولى من حمله على غير المقيس.

---

[١١٢] - فصلت :١٣

[١١٣] - فصلت :١١

[١١٤] - معانى القرآن للفراء :١/ ٢٥ ،ومعانى القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ١٠٧ ،وأمالى ابن الشجرى: ٢/ ٤٧، ٤٨ ، ٣/٩٤، وإملاء ما من به الرحمن : ٢٧١ ، والدر المصون ١/٢٤٣.

[١١٥] - الكشاف : ١/ ١٢٣

٢- قولـــه تعـالى :" قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيـتم أو يحاجوكم عند ربكم "[١١٦]،قال الزمخشرى : "والضمير فى (يحـاجوكم)- لـــ(أحد)،لأنه فى معنى الجمع"[١١٧]،وقد وضح الشيخ أحمـد بن المنير ذلك -بقوله :"أى :حيث كان نكرة فى سياق النفى "، واستشـهد بقولـه تعـالى:" فما منكم من أحد عنه حاجزين "[١١٨]،فقد وصـف كلمـة (أحد)-بالجمع [١١٩] ،والفعل: (يحاجوكم) - معطوف على: (يؤتى) [١٢٠]،والمقصود بما ذكره ابن المنير من وقوع (أحد)فى سياق النفى -فى قوله تعالى:" أن يؤتى أحد "-وقوعه فى سياق النهى، إذ هو شبه النفى -فى قوله تعالى:" ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم".

٣- قولـه تعالى:"فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم"[١٢١]،فقد اختلفوا فى مرجع ضمير الجمع فى (ملئهم)،إذ ليس فى الكلام مرجع يطابقه ،حيث لم يقل: (ملئه)-عودا إلى (فرعون)،أو (ملئها)-عودا إلى (ذرية) ،فذكر القرطبى فى مرجع الضمير -ستة أوجه :

---

[١١٦] – آل عمران : ٧٣

[١١٧] -الكشاف : ٣٧٣/١

[١١٨] – الحاقة: ٤٧.

[١١٩] – الانتصاف بذيل الكشاف : ٣٧٣/١

[١٢٠] – إملاء ما من به الرحمن : ١٣٩/١

[١٢١] – يونس :٨٣ .

أحدهـــا -أنـــه يعـــود على (فرعون) ،وقد جمع الضمير له -لما كان جبارا.

الثانى -أنه يعود على (فرعون)مع من كانوا يصاحبونه من حاشيته.

الثالث -أنه يعود على (فرعون)،باعتباره رأس القوم،كما أن (ثمود)- يطلق على القبيلة أو الجماعة .

الـــرابع -أنـــه يعود على مضاف محذوف ،أى :(على خوف من آل فرعون)،على حد قوله تعالى :" واسأل القرية "[١٢٢].

الخـــامس -أنه يعود على (ذرية) ،أى :(من ملأ الذرية)، حملاً على المعنى .

السادس :أنه يعود على (قومه).[١٢٣].

وهـــذه احتمالات ذكرت فى مرجع الضمير ،لا تتعارض مع المعنى غـــير أن بعضـــهم أنكر عود الضمير على المضاف المحذوف ،قال العكبرى : "وهذا عندنا غلط ،لأن المحذوف -لا يعود إليه ضمير ، إذ لـــو جاز ذلك -لجاز أن تقول :(زيد قاموا)وأنت تريد : (غلمان زيد قاموا)"[١٢٤].

والحـــق أن عـــود الضمير على المضاف المحذوف - لا يمتنع على إطلاقـــه ،بل يمتنع إذا لم يدل على المحذوف دليل ،أما إذا دلت قرينة

---

[١٢٢] – يوسف: ٨٢.

[١٢٣] – تفسير القرطبى :٤/ ٣٢٩٦ ، ٣٢٩٧ .

[١٢٤] – إملاء ما من به الرحمن : ٣٢/٢ .

السياق عليه -فلا مانع من عود الضمير عليه،كما فى الآية الكريمة، إذ الحديث عن (فرعون)- ينطبق أيضا على قومه، أو أتباعه، بخلاف المثال -الذى ذكره العكبرى -فليس على المضاف المحذوف دليل .

٤- قوله تعالى :" وكل أتوه داخرين" [١٢٥]فقد جمع الضمير فى (أتوه)،وهو عائد على (كل)-وهو لفظ مفرد -إلا أن معناها - الجمع،قال المبرد :" وليس الحمل على المعنى -ببعيد،بل هو وجه جيد "[١٢٦].

٥- قوله تعالى :" وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا"[١٢٧]، فقد عاد ضمير الجمع فى (شفاعتهم)-على (ملك)- وهو مفرد فى اللفظ ،غير أن وقوعه فى سياق (كم)-الخبرية ، الموضوعة للكثرة -جعله يدل على الجمع ،قال الزجاج :" جاء (شفاعتهم)-واللفظ لفظ واحد،ولو قيل :(شفاعته)- لجاز،ولكن المعنى- معنى جماعة، لأن (كم)-سؤال عن عدد وإخبار بعدد كثير،لأن (رب)-للقلة ، و(كم)-للكثرة"[١٢٨].

وإذا عاد الضمير المجموع -إلى ما معناه الجمع- وإن كان مفردا فى اللفظ -فإننا قد نرى فى القرآن الكريم -على العكس من ذلك ،أى :

---

[١٢٥] - النمل : ٨٧

[١٢٦] - المقتضب :٢٩٧/٢،وأمالى ابن الشجرى : ٥٩/١

[١٢٧] - النجم : ٢٦

[١٢٨] - معانى القرآن وإعرابه : ٥/ ٧٣، ٧٤.

نـــرى ضـــمير المفرد المذكر-يعود على الجمع،ولكن لا يعود على لفظـــه،إذ لـــو عاد على لفظه-لعاد مؤنثا،بل يعود على مفرده،ولعلنا نرى ذلك فى موضعين من القرآن الكريم :

١- قولـــــه تعالى : " وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا" [١٢٩]، فإن الضمير في (منه) – يعود على (الصدقات) .

وقد ذكر الزمخشرى في تحديد مرجعه – احتمالين :

أحدهمـــا – أن الضمير فى (منه) – جار مجرى الإشارة، كأنه قيل : (عـــن شيء من ذلك) ، كما قال الله تعالى : " قل أؤنبئكم بخير من ذلكم" [١٣٠] ،بعد ذكر (الشهوات).

والآخـــر – أنـــه يـــرجع إلـــى ما هو فى معنى (الصدقات) ، وهو (الصـــداق) ، لأنـــك لـــو قلت : (وآتوا النساء صداقهن) – لم تخل بالمعـــنى [١٣١] ،وجعلـــه العكـــبرى – يعـــود علـــى (المـــال) ، لأن (الصدقات)- مال [١٣٢].

٢- قوله تعالى:﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾[١٣٣] فقـــد عـــاد الضمير المفرد المذكر فى (بطونه)- إلى(الأنعام) ، وهو

١٢٩- النساء : ٤ .

١٣٠-آل عمران : ١٥.

١٣١-الكشاف : ١/ ٤٧٠، وتفسير القرطبى : ٢/ ١٦٩٠.

١٣٢-إملاء ما من به الرحمن : ١/ ١٦٧.

١٣٣-النحل : ٦٦.

جمـــع تكسير ، والقياس أن يعود الضمير عليه مفردا مؤنثا ، كما فى الآية الأخرى " وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها"[١٣٤]، وقد تعددت الأقوال في بيان الحكمة من إفراد الضمير وتذكيره ، فقال ســـيبويه : وأمـــا (أفعال) – فقد يقع للواحد ، من العرب من يقول : (هو الأنعام) ، وقال عز وجل : " نسقيكم مما فى بطونه "، وقال أبو الخطـــاب : سمعت العرب يقولون: (هذا ثوب أكياش) "[١٣٥] ، ويذكر الفراء فى مرجع الضمير – قولين :

أحدهمـــا – أن الـــنعم والأنعام – شىء واحد ، وهما جمعان ، فرجع التذكير إلى معنى النعم ، إذ كان يؤدى عن الأنعام.

والآخـــر – وهـــو قـــول الكسائى – وهو أن التقدير : (فى بطون ما ذكرناه) ، ثم عقب الفراء عليه – بقوله : " وهو صواب" .[١٣٦]

وقال الزمخشرى : " يجوز فى (الأنعام) – وجهان :

أحدهما – أن يكون تكسير (نعم) ، كـــ (أجبال) فى (جبل).

والآخر – أن يكون اسما مفردا مقتضيا لمعنى الجمع كـــ (نعم ، فإذا ذكر – فكما يذكر (نعم) ، في قول الشاعر :

فى كل عام نعم تحوونه يلقحه قوم وتنتجونـــه

وإذا أنث ففيه وجهان :

١٣٤–المؤمنون : ٢١.

١٣٥–الكتاب : ٣/ ٢٣٠.

١٣٦–معانى القرآن : ٢/ ١٠٨، ١٠٩.

أحدهما – أنه تكسير (نعم) .

والثانى – أنه فى معنى الجمع " .[١٣٧]

وقـد استشهد ابن الشجرى بهذه الآية على جواز عود الضمير على جمـع التكسـير – مفـردا مذكرا، مراعاة لمفرده ، ومفردا مؤنثا ، مراعاة للفظه ، وذلك فى معرض حديثه عن قول الشاعر :

بـال سهيل فى الفضيخ ففسـد

وطاب ألبان اللقاح وبرد

ذكر الضمير الذي فى (برد) ، لأنه أعاده إلى (اللبن) فأما ما جاء فى التنزيـل– من عـود الضمير مذكرا بعد جمع – فى قوله تعالى : ﴿نسـقيكم مما فى بطونه ﴾– فإن الضمير – أعيد إلى (النعم) ، وهو واحد (الأنعام) ، وهو مع تذكيره – يوقع على جماعة الإبل.[١٣٨]

وذكر أبو البقاء العكبرى – فى مرجع الضمير– ستة أوجه:

أحدهـا – أن (الأنعام) – تذكر وتؤنث ، فذكر الضمير على إحدى اللغتين .

والثانى – أن (الأنعام) – جنس ، فعاد الضمير إليه على المعنى.

الثالث – أن واحد (الأنعام) – (نعم) ، والضمير عائد على واحده.

١٣٧–الكشاف : ٢/ ٦١٥.

١٣٨–أمالى ابن الشجرى : ٣/ ٩٥، وانظر البلغة فى الفرق بين المذكر والمؤنث لأبى البركات بن الأنبارى : ٧٠.

الرابع – أنه عائد على المذكور ، فتقديره : (مما فى بطون المذكور).

والخامس – أنه يعود على البعض الذي له لبن منها .

السادس – أنه يعود على الفحل ، لأن اللبن – يكون من طرق الفحل الناقة ، فأصل اللبن – ماء الفحل ، وقد ضعف العكبرى هذا الوجه الأخير ، لأن اللبن – وإن نسب إلى الفحل– فقد جمع البطون، وليس فحل الأنعام – واحدا، ولا للواحد – بطون.[١٣٩]

وقد وافق أبو حيان – ابن مالك – فى جواز عود الضمير على مفرد الجمع ، واستشهد بكلام العرب : (هو أحسن الفتيان وأجمله)، لأنه بمعنى (أحسن فتى) ، فأفرد الضمير، حملا على المعنى ، ثم استشهد بكلام ابن مالك – فى شرح التسهيل– وهو : "وإلى نحو هذا أشرت بقولى : أو لسد واحد مسدهم " ، ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿ نسقيكم مما فى بطونه﴾،وقول الراجز:(وطاب ألبان اللقاح وبرد)، لأن (النعم) ، و(اللبن) – يسدان مسد (الأنعام) ، و(الألبان)[١٤٠].

وقد يعود ضمير الجمع – فى القرآن الكريم – على ما يدل على المثنى – إما بمعناه : بأن يكون لفظه مفردا، أو بلفظه : بأن يكون بلفظ المثنى ، وقد نجد ذلك فى مواضع منها :

١٣٩-إملاء ما من به الرحمن : ٢/ ٨٣.

١٤٠- التذييل والتكميل فى شرح التسهيل : ٢/ ١٤٩.

١- قولـــه تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ - إِذْ دَخَلُـــوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْـــضٍ﴾[١٤١]، فقـــد عـــاد ضمير الجمع فى (تسوروا) ، و (دخلوا)، و(مـــنهم) ، و(قالوا) - على (الخصم)، وهو مفرد فى اللفظ ، إلا أنه يـــدل علـــى المثنى، بدليل سياق القصة عليه ، وقد ساق سيبويه-هذه الآية - فى معرض حديثه عن معاملة المثنى - معاملة الجمع ، فقال: " وقد قالت العرب فى الشيئين اللذين كل واحد منهما - اسم على حدة وليس واحد منهما - بعض شىء ، كما قالوا فى (ذا) ، لأن التثنية - جمع "[١٤٢] ، وقال القرطبى : " وقيل : (تسوروا) - وإن كانا اثنين - حمـــلا علـــى (الخصـــم)، إذ كان بلفظ الجمع - يريد اسم الجمع - ومضارعا له ، مثل : (الركب)، و(الصحب)"[١٤٣]

٢-قولـــــه تعـــالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَـــيْءٍ وَمَـــنْ رَزَقْـــنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْـــتَوُونَ﴾[١٤٤]، فقـــد عـــاد ضمير الجمع فى (يستوون) - إلى العبد المملـــوك و (ومن رزقناه) ، ولو جاء الضمير مطابقا للفظ - لقيل : (هل يستويان)، ولكنه - تعالى- أراد المعنى ، قال الزمخشرى: " لم قيل : (يستوون) - على الجمع ؟ قلت : معناه - (هل يستوى الأحرار

١٤١- ص : ٢١/ ٢٢.

١٤٢-الكتاب : ٣/ ٦٢٢، ٢/ ٤٤٨.

١٤٣-تفسير القرطبى : ٨/ ٥٨٠٦.

١٤٤-النحل : ٧٥.

والعبيد)"[١٤٥]، وقال النسفى : " جمع الضمير ، لإرادة الجمع ، أى : لا يستوى القبيلان ."[١٤٦].

٣-قولـــه تعـــالى : ﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم ﴾[١٤٧] ، فقد عـــاد ضمير الجمع فى (اختصموا) – إلى لفظ المثنى : (خصمان) ، لأن الخصـــمين – كمـــا يقول الزجاج- المؤمنون والكافرون ، فهما جمعان ، ولذلك جمع الضمير .[١٤٨]

٤-قولـــــه تعالى :﴿ قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون﴾[١٤٩]، فقـــد خاطـــب المثنى : موسى ، وهارون – عليهما السلام- بضمير الجمـــع – فـــى قوله تعالى (معكم) ، وقد ذكر سيبويه – هذه الآية – دلـــيلا علـــى معاملـــة العرب – للمثنى – معاملة الجمع [١٥٠]، وقال القرطبى : " أجراهما مجرى الجمع ، لأن الاثنين – جماعة ، ويجوز أن يكـــون الضمير لهما ، ولمن أرسلا إليه، ويجوز أن يكون لجميع بنى إسرائيل" [١٥١] .

١٤٥- الكشاف : ٢/ ٦٢٣.

١٤٦-- تفسير النسفى : ٢/ ٢٩٤.

١٤٧-الحج : ١٩.

١٤٨-معانى القرآن وإعرابه : ٣/ ٤١٩.

١٤٩-الشعراء : ١٥.

١٥٠-الكتاب : ٣/ ٦٢٢.

١٥١-تفسير القرطبى : ٧/ ٤٩٧١.

٥-قوله تعالى:﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون﴾[١٥٢] فإن ضمير الجمع فى (يستوون) – يعود على (مؤمنا) ، و(فاسقا) ، وهما بلفظ الاثنين ، قال الزجاج : "ولو قال : (لا يستويان) – لكان جائزا ، ولكن (مَن) – لفظها لفظ الواحد ، وهى تدل على الواحد ، وعلى الجماعة ، فجاء (لايستوون) –على معنى:(لا يستوى المؤمنون والكافرون)، ويجوز أن يكون (لا يستوون) – للاثنين ، لأن معنى الاثنين = جماعة "[١٥٣].

٦-قوله تعالى:﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾[١٥٤]،فقد عاد ضمير الجمع فى (اقتتلوا) – إلى المثنى – وهو (طائفتان) ، قال الزمخشرى : " فإن قلت : ما وجه قوله (اقتتلوا) ، والقياس (اقتتلتنا) ، كما قرأ ابن أبى عبلة ، أو (اقتتلا) ، كما قرأ عبيد بن عمير ، على تأويل (الرهطين) ، أو (النفرين) ؟ قلت : هو مما حمل على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين فى معنى القوم ، والناس".[١٥٥]

وقد نرى الضمير المخاطب به مفرد مذكر – يعود على لفظ مؤنث، ولكن قد يراد به المذكر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ بلى قد جاءتك

١٥٢- السجدة :١٨.

١٥٣-معانى القرآن وإعرابه : ٤/ ٢٠٨.

١٥٤-الحجرات : ٩ .

١٥٥-الكشاف : ٤/ ٣٦٤، وراجع أمالى ابن الشجرى : ٢/ ٤٨.

آيـــاتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ [١٥٦]، فالمخاطب بهـــذه الآية – مفرد مذكر ، على حين كان الحديث عن النفس – فى الآيـــات السابقة – وذلك فى قوله تعالى : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين " [١٥٧]، قال أبو الـــبركات بـــن الأنـــبارى : " و (النفس)– مؤنثة ، وأما قوله – فى الجـــواب : (بلى قد جاءتك آياتى) – بالتذكير – فحمله على المعنى ، لأن النفس فى المعنى – إنسان "[١٥٨]

وقـــد يعـــود ضمير جمع الإناث – على جمع التكسير – الذي واحده مذكـــر ، وذلـــك إذا أريد به النساء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وفرش مـــرفوعة – إنـــا أنشـــأناهن إنشاء﴾[١٥٩] ، قال العكبرى : " الضمير للفرش، لأن المراد بها – النساء " [١٦٠]، قال النسفى : " لأن المرأة – يكـــنى عنها بالفراش ، مرفوعة على الأرائك، ويدل عليه قوله : "إنا أنشأناهن إنشاء "[١٦١].

كـــان ذلـــك بعض النماذج القرآنية –التى يعود فيها الضمير –على مـــرجعه،حملا علـــى المعنى،وعليه –فإن مخالفة الضمير لمرجعه –

١٥٦– الزمر : ٥٩.

١٥٧– الزمر : ٥٦.

١٥٨–البلغة فى الفرق بين المذكر والمؤنث : ٦٧.

١٥٩–الواقعة : ٣٤، ٣٥.

١٦٠–إملاء ما من به الرحمن : ٢/ ٢٥٤.

١٦١–تفسير النسفى :٣١٦/٤

كانت من حيث اللفظ،أما من حيث المعنى-فإن المطابقة ما زالت متحققة.

عود الضمير على المتعاطفين

المتتبع لآى القرآن الكريم -يجد كثيرا من المتعاطفين -بالواو،أو بـ(أو)-يعود الضمير عليهما-مفردا،لا مثنى ،وتارة نجده مذكرا، وتارة نجده مؤنثا فإذا كان المتعاطفان -مذكرين -فإننا نجد الضمير يعود إليهما مفردا مذكرا،وإذا كان أحد المتعاطفين -مذكرا،والآخر -مؤنثا-فإننا نجد الضمير يعود إليهما-تارة مؤنثا ، وتارة مذكرا،وهذا الاختلاف -لابد له من حكمة نحوية يقتضيها المعنى،وفيما بلى نذكر بعض الآيات -التى يعود فيها الضمير على المتعاطفين ،مخالفا للفظهما ،وسوف نرتب هذه الآيات -حسب وردها فى السور ، ذاكرين أقوال النحاة والمفسرين فى سر هذه المخالفة :

١-قوله تعالى :"واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين"[١٦٢] ،فقد اختلفوا فى مرجع الضمير المؤنث -فى (وإنها)، فقد ذهب الزجاج -إلى أن الضمير -للصلاة -والمعنى أن الصلاة التى معها الإيمان بالنبى -صلى الله وعليه وسلم - كبيرة على الكفار، وعظيمة عليهم مع الإيمان بالنبى -صلى الله وعليه وسلم [١٦٣]، وذكر الزمخشرى- ثلاثة أوجه :وهى -أن الضمير للصلاة،أو

١٦٢- البقرة :٤٥

١٦٣-- معانى القرآن وإعرابه :١٢٥/١

للاستعانة ،ويجوز أن يكون لجميع الأمور التى أمر بها بنو إسرائيل ، ونهوا عنها ،من قوله :" اذكروا نعمتى "[١٦٤] إلى قوله: (واستعينوا)[١٦٥].

وبعد أن ذكر العكبرى –جواز عود الضمير على الصلاة ،أو على الاستعانة –نقل رأيا آخر –وهو عوده على القبلة لدلالة الصلاة عليها، غير أنه ذكر هذا الرأى بعد صيغة التضعيف –وهى :(قيل)[١٦٦].

أما القرطبى –فقد ذكر ثمانية أوجه –فى مرجع الضمير :

الأول – الصلاة وحدها خاصة ،لأنها تكبر على النفوس ما لا يكبر الصوم ،و(الصبر)هنا –الصوم.

الثانى –أن الضمير يعود عليهما ،ولكنه كنى عن الأغلب ،وهو الصلاة .

الثالث–أن الصبر داخل فى الصلاة ،فأعاد الضمير عليها،كما فى قوله تعالى :" وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ"[١٦٧] ،ولم يقل :

(يرضوهما)،لأن رضا الرسول –صلى الله وعليه وسلم –داخل فى رضا الله –تعالى .

الرابع – أنه رد الكناية إلى كل واحد منهما ،ولكن حذف من الأول اختصارا،كما فى قوله تعالى : "وجعلنا ابن مريم وأمة آية "[١٦٨] ،ولم يقل :(آيتين).

١٦٤–البقرة–

١٦٥–الكشاف : ١/ ١٣٤

١٦٦–إملاء ما من به الرحمن : ١/ ٣٤

١٦٧–التوبة :٦٢.

١٦٨– المؤمنون /٥٠.

الخـــامس –أن الضمير –عائد على العبادة –التى يتضمنها بالمعنى– ذكر الصبر والصلاة .

الســـادس – أن الضمير يعود على المصدر ،وهو (الاستعانة)–التى يقتضيها الفعل:(واستعينوا).

السابع –أن الضمير –عائد على إجابة سيدنا محمد –صلى الله وعليه وسلم .

الثامن –أنه عائد على الكعبة ،لأن الأمر بالصلاة –إنما هو إليها.[١٦٩]

وعلـــى القـــول بأن الضمير –يعود على (الاستعانة)– فإن ذلك داخل تحت عود الضمير على أحد مدلولى الفعل –وهو المصدر ،وقد سبق الحديث عن ذلك ،وهو شائع فى اللغة .

أمـــا على القول بأن الضمير –يعود على العبادة أو على الإجابة ،أو علـــى الكعـــبة ،أو على القبلة،أو على جميع ما أمر به بنو إسرائيل، ونهـــوا عنه –فإن ذلك كله –داخل فى عود الضمير على ما يفهم من السياق والمعنى ،وقد سبق الحديث عن ذلك أيضا.

ونخلص من ذلك –إلى أن النص الكريم –يقبل هذه الاحتمالات كلها، وكلها يثرى المعنى،إذ لا يتعارض شىء منها مع الآخر .

٢–قولـــــه تعـــالى :" فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه "[١٧٠]،فإن الضمير المستتر –فى الفعل :(يتسنه)–عائد على الطعام والشراب،ولو

١٦٩– تفسير القرطبى :١/ ٤١٣ ،٤١٤ وراجع البرهان فى علوم القرآن : ١٢٨/٣، الدر المصون للسمين الحلبى ٣٣٠/١.

١٧٠– البقرة : ٢٥٩

روعيت المطابقة اللفظية-لقيل :(لم يتسنيا)،أو(لم يتسنها) -على خلاف بينهم فى أصل الهاء،وما يعنينا هنا -هو مرجع الضمير ،وقد ذكر العكبرى عدة احتمالات فى مرجع الضمير:

الأول – يحتمل أن يكون ضمير الطعام والشراب ،لاحتياج كل واحد منهما إلى الآخر بمنزلة شىء واحد ،فذلك أفرد الضمير فى الفعل .

الثانى – ويحتمل أن يكون جعل الضمير لـ (ذلك)،لأن (ذلك) – يكنى به عن الواحد ،والاثنين،والجمع بلفظ واحد.

الثالث– ويحتمل أن يكون الضمير – لـ(الشراب)،لأنه أقرب إليه.

الرابع– ويجوز أن يكون أفرد فى موضع التثنية.[١٧١]

ولنا ملاحظة على الاحتمال الثالث -وهو عود الضمير على (الشراب)،وحده ،وهى أن ذلك يسوغ رفع (الشراب)على الابتداء ، وجعل جملة :(لم يتسنه)– خبرا عنه،على أن تكون جملة:(وشرابُك لم يتسنه)– فى موضع الحال، ولذلك يضعف هذا الاحتمال لما يؤدى إليه من تفكك الجملة ،وخروجها عن باب العطف ،ولو كان الضمير منصوبا– لأمكن أن يعود على أقرب المذكورين ،ولكان هذا الاحتمال مقبولا ،ولكن الضمير هنا -هو الفاعل المستتر فى الفعل فلو عاد على أقرب المذكورين – لجذبه إليه،ليكون مرفوعا بالابتداء.

٣– قوله تعالى:" وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت "[١٧٢]،فقد أفرد الضمير فى (له)،وهو عائد على (رجل)،

١٧١– إملاء ما به الرحمن : ١/ ١٠٩ ، ١١٠

١٧٢– النساء :١٢

و(امـــرأة) –المتعاطفيـــن بـــــ(أو)،قال الفراء :"لم يقل: (لهما)،وهذا جائـــز،إذا جـــاء حـــرفان فـــى معنى واحد –يريد :فى حكم واحد – بـــــ(أو)– أســـندت التفسير إلى أيهما شئت ،وإن شئت ذكرتهما فيه جمـــيعا،تقول فى الكلام :(من كان له أخ أو أخت– فليصله)، تذهب إلـــى الأخ،و(فليصلها) تذهب إلى الأخت وإن قلت–فذلك جائز ،وفى قراءتـــنا :" إن يكـــن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما "[173] ،وفى إحدى القراءتيـــن:" فـــالله أولـــى بهم"– ذهب إلى الجمع،لأنهما –اثنان غير موقتين "[174]

وقـــد أنكر ابن عصفور –أن يثنى الضمير –للمتعاطفين بـــ(أو)،وعد تثنـــية الضمير فى (فالله أولى بهما) – من قبيل الشاذ الذى لا يقاس عليه ،حيث القياس عنده –أن يقال (فالله أولى به)،وقد عقب المحققان: أحمد عبد الستار الجوادى ،وعبد الله الجبورى –بقولهما:" وهذا أيضا مـــن ســـقطاتهم ،فكـــيف لا يقاس على العبارة القرآنية ،وهى أساس قواعـــد الـــنحو واللغة "[175] ،وقد حاول الزمخشرى أن يلتمس وجها متكلفا يسوغ معه تثنية الضمير العائد على المتعاطفين بـــ(أو)،فقال : " فـــإن قلت :لم ثنى الضمير فى (أولى بهما)،وكان حقه –أن يوحد ، لأن قولـــه (إن يكن غنيا أو فقيرا)–فى معنى :أحد هذين؟ قلت: قد

١٧٣– النساء :١٣٥

١٧٤ – معانى القرآن : ١/ ٢٥٧، ٢٥٨

١٧٥–– المقرب مع الهامش : ١/ ٢٣٥، ٢٣٦

رجـــع الضمير إلى ما دل عليه قوله (إن يكن غنيا أو فقيرا)-لا إلى المذكـــور ،فلذلك ثنى ولم يفرد،وهو جنس الغنى،وجنس الفقير،كأنه قـــيل (فالله أولى بجنس الغنى،والفقير)-أى: بالأغنياء والفقراء ،وفى قـــراءة أبى:" فالله أولى بهم "،وهى شاهده على ذلك"[١٧٦] ،وربما كان الزمخشـــرى -أخف تحاملا على هذه الظاهرة - من ابن عصفور - وإن كـــان تأويله هذا -متكلفا ،وعلى أى حال- فإن محاولة التأويل ، لرد الظاهرة إلى القياس -خير من الحكم عليها بالشذوذ ،ولو اتبع ابن عصـــفور -الزمخشرى ،فى هذا التأويل -لكان خيرا له من أن يحكم على قراءة سبعية متواترة،أجمع السبعة عليها- بالشذوذ ،والحق -ما ذهب إليه الفراء - من جواز الإفراد ،والتثنية ،والجمع،ويبين الأستاذ عـــباس حسن -أن الغالب -وقيل: الواجب -فى الضمير بعد (أو)التى للشـــك أو للإبهـــام -أن يكون مفردا ،مثل (شاهدت المريخ أو القمر يـــتحرك)،أمـــا بعـــد (أو) التنويعـــية -التى لبيان الأنواع والأقسام - فالمطابقة،كقوله تعالى :" إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما "[١٧٧] .

٤- قولـــــه تعالى :" ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به برئيا فقد احـــتمل بهتانا وإثما مبينا"[١٧٨] والكلام عن هذه الآية كالكلام عن الآية السابقة ،حيث أفرد الضمير وذكره فى (به)،مع أنه يعود على شيئين

---

١٧٦ - الكشاف : ١٣٦/١

١٧٧- النحو الوافى :٢٦٩/١

١٧٨- النساء :١١٢

متعاطفين بـ(أو)،أولهما مؤنث ،والثانى مذكر،وقد أجاز الفراء-فى مثل هذا -أن يفرد الضمير مذكرا،أو مؤنثا ،وأن يثنى ؟،وأن يجمع،فقال:" وذلك جائز أن يكنى عن الفعلين -يريد الخطيئة، والإثم، لأن الكوفيين يطلقون على الصفات والمصادر أفعالا - وأحدهما مؤنث -بالتذكير والتوحيد،ولو كثر -لجاز الكناية عنه بالتوحيد ،لأن الأفاعيل -يقع عليها فعل واحد،فلذلك جاز .

فإن شئت ضممت الخطيئة والإثم،فجعلته كالواحد،وإن شئت -جعلت الهاء للإثم خاصة ،كما قال تعالى :" وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها "[١٧٩]،فجعله للتجارة ،وفى قراءة عبد الله :" وإذا رأوا لهوا أو تجارة انفضوا إليها " ،فجعله للتجارة فى تقديمها وتأخيرها،ولو أتى بالتذكير،فجعلا كالفعل الواحد-لجاز ،ولو ذكر على نية اللهو- لجاز" ،ثم استشهد الفراء -على جواز تثنية الضمير فى مثل هذا- بقوله تعالى :" إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما " ويستنتج من ذلك -جواز تثنية الضمير فى :(ثم يرم به) ،وفى : (انفضوا إليها) ،وفى هذا يقول :" فلو أتى فى الخطيئة ، واللهو،والإثم، والتجارة مثنى -لجاز" ،واستشهد على جواز جمع الضمير- بعد المتعاطفين بـ(أو)-بقراءة أُبَيّ :" إن يكن غنى أو فقير فالله أولى :بهم "[١٨٠] وما نفهمه من كلام الفراء -أن الضمير العائد

---

[١٧٩] - الجمعة :١١

[١٨٠] - معانى القرآن : ١/ ٢٨٦، ٢٨٧

علـــى المتعاطفين بـــ(أو)-يجوز إفراده، وتثنيته ،وجمعه ،كما يجوز تذكيره،وتأنيـــثه - إن كان أحد المتعاطفين -مؤنثا،تقدم أو تأخر ،فإذا أفـــرد الضمير -كان المتعاطفان -كالشيء الواحد،وإذا ثنيا -فعلى لفظ المتعاطفين ،وإذا جمع -فعلى إرادة الجمع.

كذلـــك أجـــاز القرطبى -أن يعود الضمير فى (به)-على (الإثم) وأن يعـــود علـــى الخطيـــئة والإثم معا ،كما أجاز أن يعود على المصدر المفهوم من الفعل (يكسب) -وهو :الكسب [١٨١].

٥- قولـــــه تعالى :" وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما "[١٨٢]،فقد أفرد الضمير هنا مؤنثا -فى :(إليها)،وهو راجع إلى المتعاطفيـــن بـــ(أو)،والمتقدم منهما-مؤنث ،وقد أعاد الفراء هنا -ما ذكـــره ،فى آيات النساء- من جواز إفراد الضمير مذكرا أو مؤنثا، وتثنيته،وجمعه ،إلا أنه أضاف هنا -أن الأجود فى العربية -أن يعود الضـــمير -إلى الأخير من المتعاطفين ،مع جواز الوجوه الأخرى،ثم علـــل عـــود الضـــمير المؤنث -هنا إلى التجارة -وهى الأبعد -بان التجارة كانت أهم إليهم ،وهم بها أسر منهم بضرب الطبل"[١٨٣].

وذهب الزجاج ،والزمخشرى -إلى أن الضمير فى(إليها)- راجع إلى (تجارة)،وقد حذف ما يعود على (لهوا)،لدلالة المذكور عليه،والتقدير

---

[١٨١] - تفسير للقرطبى :٢/ ٢٠٤٢

[١٨٢] - الجمعة :١١

[١٨٣] - معانى القرآن : ٣/ ١٥٧ ، وراجع إملاء ما من به الرحمن للعكبرى : ٢/ ٢٦٢ ،والبرهان فى علوم القرآن للزركشى :١٢٦/٣، ١٢٨

- عـــندهما (وإذا رأوا تجـــارة انفضوا إليها ،وإذا رأوا لهوا انفضوا إليه)،ويجوز (إليه)،كما يجوز (إليهما)،وقد قرئ بذلك.[١٨٤] .

٦- قولـــه تعالى :" يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عـــنه وأنتم تسمعون"[١٨٥]، فقد أفرد الضمير فى(عنه)،مع أنه مسبوق بمتعاطفيـــن -بـــالواو ،وقـــد قدمنا آية الجمعة -على هذه الآية ، لأن العطف فيها -بـــ(أو)، فضممناها -إلى آيات النساء ،لأن الكلام عنها -واحد كما أن النحاة يفرقون بين حكم الضمير العائد على المتعاطفين بـــ(أو)،والضمير العائد على المتعاطفين -بالواو ،فقد ذكرنا سابقا أن بعضـــهم -يوجـــب إفـــراد الضمير بعد المتعاطفين -بـــ(أو)،ويوجب تطابق الضمير العائد على المتعاطفين -بالواو ،وفى هذه الآية -وفى آيـــات أخرى،سنذكرها- إن شاء الله تعالى -جاء الضمير العائد على المتعاطفيـــن بـــالواو -مفـــردا ،والضمير فى (عنه)-يعود -كما يقول الزمخشرى -إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ،لأن المعنى -(أطيعوا رسول الله)،ولأن طاعة الرسول صلى الله وعليه وسلم -وطاعة الله - شىء واحد ،بدليل قوله تعالى:" مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ "[١٨٦]، فكان رجوع الضمير إلى إحدهما -كرجوعه إليهما ،كقولك(الإحسان والإجمـــال -لا ينفع فى فلان)، وأجاز الزمخشرى - وجها آخر،وهو

---

[١٨٤] - معانى القرآن وإعرابه : ٥/ ١٧٢ ،والكشاف : ٤/ ٥٣٧

[١٨٥] - الأنفال :٢٠

[١٨٦] - النساء : ٨٠.

أن يرجع إلى الأمر بالطاعة،أى (ولا تتولوا عن هذا الأمر)[١٨٧] ومثل هـذا فى توحيد الضمير بعد المتعاطفين -بالواو -قوله تعالى:" يا أيها الذيـن آمـنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم "[١٨٨] ،فقد وحد الضمير المستتر فى (دعاكم)،حيث لم يقل(دعواكم) كما وحده - فـى الآيـة السابقة ،لأن استجابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كاستجابته -تعالى،وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد .[١٨٩].

٧- قولـه تعالى :" والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم "[١٩٠] ،فقد اختلف النحاة والمفسرون حول مـرجع الضـمير -فى (ينفقونها)،إذ هو مسبوق بشيئين متعاطفين - بـالواو ،ومع ذلك لم يقل :(ينفقونهما)،فقال الفراء:" فإن شئت وجهت الذهـب والفضـة إلى الكنوز ،فكان توحيدهما من ذلك ، وإن شئت اكتفيـت بذكر أحدهما من صاحبه ،كما قال تعالى:" وإذا رأوا تجارة أو لهـوا انفضـوا إلـيها" [١٩١] ،فجعله للتجارة ،وقوله تعالى : " ومن يكسـب خطيئة أو إثما ثم يرم به برئيا "[١٩٢] ،فجعله والله أعلم -للإثم ، وقال الشاعر فى مثل ذلك :

---

[١٨٧] – الكشاف : ٢٠٩/٢

[١٨٨] – الأنفال : ٢٤

[١٨٩] – الكشاف :٢١٠/٢ ،وراجع البرهان فى علوم القرآن للزركشى : ٣/ ١٢٧ ، ١٢٨

[١٩٠] – التوبة :٣٤

[١٩١] – الجمعة :١١

[١٩٢] –النساء :١١٢

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

ولم يقل :(راضون)،وذلك لاتفاق المعنى -يكتفى بذكر الواحد" [١٩٣].

وقال الزمخشرى:" ذهابا بالضمير إلى المعنى دون اللفظ ،لأن كل واحد منهما -جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم،فهو كقوله تعالى :" وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا "[١٩٤]،وقيل :ذهب به إلى الكنوز ،وقيل :إلى الأموال ،وقيل :معناه (ولا ينفقونها والذهب)"[١٩٥].

وقال أبو حيان :" والضمير فى (ولا ينفقونها)- عائد على الذهب ، لأن تأنيثه -أشهر ،أو على الفضة ،وحذف المعطوف فى هذين القولين -أى :أن كان عائدا على الذهب -كان التقدير (ولا ينفقونها والفضة)، وإن كان عائدا على الفضة - كان التقدير :" (ولا ينفقونها والذهب)- أو عليهما باعتبار أن تحتهما أنواعا ،فروعى المعنى، كقوله تعالى :وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا "،أو لأنهما محتويات على جمع دنانير ودارهم ،أو على المكنوزات ،لدلالة (يكنزون)،أو على الأموال ،أو على النفقة ، وهى المصدر الدال عليه(ولا ينفقونها)، أو على الزكاة ،أى (ولا ينفقون زكاة الأموال)" ،ويرد أبو حيان - قول كثير من المفسرين -بأن الضمير عائد على أحدهما اكتفاء به عن الآخر، كما فى قوله تعالى :" وإذا رأو تجارة أو لهوا

---

[١٩٣] - معانى القرآن : ١/ ٤٣٤

[١٩٤] - الحجرات :٩.

[١٩٥] - الكشاف : ٢/ ٢٦٨

انفضوا إليها" ، فيقول: " وليس مثله ،لأن هذا عطف بـ(أو)،فحكمها أن الضمير يعود على أحد المتعاطفين ،بخلاف الواو -إلا إن ادعى أن الواو فى (والفضة)-بمعنى (أو) ،فيمكن ،وهو خلاف الظاهر"[١٩٦].

وقال الزركشى :" أعاد الضمير على الفضة وحدها،لأنها أقرب المذكورين ،لأن الفضة أكثر وجودا فى أيدى الناس ،والحاجة إليها أمس ،فيكون كنزها أكثر"[١٩٧]، ولا مانع من قبول الآية ،لهذه الاحتمالات كلها ،لأن الذهب والفضة -هما مصدر الدنانير والدراهم- التى يطلق عليها الكنوز والأموال ،غير أن ما ذكره الزركشى من أن الضمير -يعود على الفضة ،لأنها أكثر وجودا فى أيدى الناس ،لأن حاجة الناس إليها أمس - فهذا رأى بعيد لأن الذهب - أغلى من الفضة ،والناس عليه أحرص ،وكنزه أولى ،ولو قال لأنها أقرب المذكورين ،مع تقدير معطوف محذوف ،أى (ولا ينفقونها والذهب)- كما ذكر الزمخشرى وأبو حيان -لكان أولى بالقبول .

٨- قوله تعالى :" يحلفون لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين "[١٩٨]،وهذه أيضا من الآيات -التى كثر فيها الخلاف حول مرجع الضمير فى (يرضوه)،حيث لم يقل:(يرضوهما)

---

[١٩٦] - البحر المحيط : ٥/ ٣٦

[١٩٧] - البرهان فى علوم القرآن ١٢٦/٣، ١٢٧

[١٩٨] - التوبة : ٦٢

- بإعـــادة الضـــمير إلى الله ورسوله ،وقد ذهب الفراء إلى الضمير يعود على (رسوله)،وقد ذكر الله -عز وجل -تعظيما ،لأن المعنى - والله أعلـــم بمـــنزلة قولـــك :(ما شاء الله وشئت)فإنك قبل أن تنسب المشيئة إليك تنسبها إلى الله -عز وجل -تعظيما ،ويؤيد هذا المعنى - قولـــه تعالى:" وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه "[١٩٩]،وكما يقـــول الســـيد لعبده :(أعتقك الله وأعتقتك)،وأجاز وجها آخر،وهو أن الضـــمير يعود عليهما ، فالمقصود -(يرضوهما) ،فاكتفى بواحد ،كما فى قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

ولم يقل :(راضون) [٢٠٠] ،يريد أن الشاعر اكتفى بذكر خبر :(أنت) - وهـــو (راض)، وحذف خبر (نحن)-وهو (راضون) ،لدلالة المذكور عليه ،وعليه- يكون التقدير فى الآية :(والله أحق أن يرضوه،ورسوله أحق أن يرضوه)،وإلى هذا الرأى - ذهب الزمخشرى أيضا -إلا أنه ذكر قبله وجها آخر ،وهو أن توحيد الضمير -يدل على عدم التفاوت بين رضا الله -تعالى ،ورضا رسوله صلى الله وعليه وسلم ،فكانا فى حكـــم مرضـــى واحد [٢٠١]،وإلى هذا الرأى أيضا ذهب أبو حيان،كما ذكـــر أيضا أن فى الكلام حذفا ،أى: (والله أحق أن يرضوه،ورسوله

---

[١٩٩] - الأحزاب :٣٧.

[٢٠٠] - معانى القرآن :١/٤٣٤ / ٤٤٥

[٢٠١] - الكشاف ٢/ ٢٨٥ ،وراجع تفسير النسفى :٢/١٣٣

أحــق أن يرضــوه)-بحذف خبر الأول ،لدلالة خبر الثانى عليه ،ثم أجــاز أبو حيان وجها ثالثا -وهو أن الضمير -يعود على المذكور ، كما فى قول رؤية :

فيها خطوط من سواد وبلق

كأنه فى الجلد توليع البهق [٢٠٢]

فالضمير فى (كأنه) -يعود على المذكور ،ويقول البغدادى:" والرابط -الضــمير بــتأويله باســم الإشارة ،واسم الإشارة -مؤول بالمذكور، ونحوه، وإنما لم يؤول بالمذكور ابتداء ،لأن التأويل -قد كثر فى اسم الإشارة "[٢٠٣] .

ويرى ابن عصفور -أن إفراد الضمير بعد المتعاطفين بالواو - نادر فــى الكلام ،يقول :" وإذا تقدم معطوف معطوف عليه ،وتأخر عنهما ضــمير يعــود عليهما- فإن كان العطف بالواو -كان الضمير على حســبهما ،نحو قولك :(زيد وعمرو قاما)،ولا يجوز الإفراد -إلا فى الشعر ،نحو قول الشاعر :

إن شرخ الشباب والشعر الأســ ود ما لم يعاص كانا جنونا

يــريد :(يعاصــيا)،أو فــى نادر من الكلام،ومنه قوله تعالى:" والله ورســوله أحــق أن يرضوه" [٢٠٤]،وما كان لابن عصفور -أن يعد ما

---

[٢٠٢] - البحر المحيط : ٥/ ٦٤

[٢٠٣] - خزانة الأدب : ١/ ٨٩

[٢٠٤] - المقرب : ٢٣٥/١

جاء فى كتاب الله -تعالى -من قبيل النادر ،وقد رأينا إفراد الضمير -تعالى -يعد المتعاطفين -بالواو -كثيرا فى القرآن الكريم ،وله أوجه سائغة فى العربية ،ولا ينبغى أن نعرض ما جاء فى القرآن الكريم- من ظواهر نحوية -على قواعد موضوعة سلفا،بحيث نرفض ،أو نضعف ،ما خالف هذه القواعد ،بل يجب أن يكون النص القرآنى هو المحتذى ،وهو الأصل الذى -نقيس عليه -كل كلام عربى فصيح .

وقال الزركشى :" فقيل :(أحق)- خبر عنهما، وسهل إفراد الضمير بعد إفراد (أحق)،وأن إرضاء الله سبحانه -إرضاء لرسوله-عليه الصلاة والسلام، وقيل :(أحق)-خبر عن النبى -صلى الله وعليه وسلم ،وحذف من الأول -لدلالة الثانى عليه ،وقيل: العكس -يريد :أن المذكور -خبر عن الأول - وهو الله -تعالى ،وحذف خبر الثانى،لدلالة الأول عليه -وإنما أفرد الضمير ،لئلا يجمع بين اسم الله -تعالى ورسوله -ﷺ -فى ضمير واحد ،كما جاء فى الحديث :" قل ومن يعص الله ورسوله"[٢٠٥] .

وعلى القول بحذف أحد الخبرين ،لدلالة المذكور عليه- فإن النحاة - يفضلون حذف خبر الأول،وأن المذكور-خبر الثانى،فإذا قيل :

(زيد وعمرو قائم)-كان (قائم)-خبرا عن (عمرو)،وكان المحذوف -خبر (زيد)،وذلك لسلامة هذا التأويل من الفصل ،ولأن فيه إعطاء الخبر للمجاور، ولو كان (قائم)-خبر عن الأول -لوقع فى

٢٠٣- البرهان فى علوم القرآن : ٣/ ١٢٧

موضـــعه،إذ لا ضـــرورة تدعو إلى تأخيره،إذ كان الخبر يحذف بلا عوض ،نحو :(زيد قائم وعمرو) –من غير قبح فى ذلك [٢٠٦]،وعليه فيمكـــن القـــول بأن (أحق أن يرضوه) –خبر عن (رسوله)،وأن خبر لفـــظ الجلالـــة –هـــو المحذوف ،والتقدير : (والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه)،وبذلك يكون هذا التركيب جملتين اسميتين متعاطفتيـــن،وأن لكـــل مبـــتدأ فيهما ضميرا يعود عليه،فالضمير فى (يرضـــوه)– عائد على (رسوله)،وفى الخبر المحذوف –ضمير آخر يعـــود علـــى لفظ الجلالة ،ويمكن أن نقيس على هذا كل ما ورد فى القرآن الكريم –مما يشبه ذلك ،فالضمير فى قوله تعالى :" وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فـــضله"[٢٠٧]–يعود على (رسوله)،على أن يكون الجار والمجرور :

(مـــن فضله)– دليلا على محذوف مماثل تضمن ضميرا يعود على لفـــظ الجلالـــة ،أى :(أغـــناهم الله مـــن فضله،وأغناهم رسوله من فضله)،ولا مانع من أن نقول بهذا فيما سبق :من قوله تعالى:" يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه"،وقوله تعالى:" يا أيها الذيـــن آمـــنوا اســـتجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم " وقوله تعالى: " والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله" ، فالضـــمير –فـــى ذلك كله –يعود على أقرب المذكورين،على تقدير

٢٠٦- مغنى اللبيب لابن هشام :٢/ ٧١٢

٢٠٧- التوبة .

محـــذوف مســـائل متضـــمن لضـــمير آخـــر يعود على المعطوف عليه،والـــتقدير :(أطـــيعوا الله ولا تولوا عنه ، وأطيعوا رسوله ولا تولوا عنه)، (استجيبوا لله إذا دعاكم ، وللرسول إذا دعاكم)، (والذين يكـــنزون الذهـــب ولا يـــنفقونها فى سبيل الله ، ويكنزون الفضة ولا يـــنفقونها فـــى سبيل الله)، وقد سبق أن ذكرنا قول أبى حيان بتأنيث الذهب ،والحذف –فى القرآن الكريم لإيجار والاختصار –أمر شائع ، وهـــو من دلائل الإعجاز فيه،وقد عقد الزركشى مبحثا خاصا للحذف فـــى القـــرآن الكريم،فمـــن ذلك –قوله تعالى:" وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالـــنَّهَار"[٢٠٨]،أى :(وله ما سكن،وما تحرك)،وقوله تعالى :" سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ"[٢٠٩]،أى (تقيمكم الحر والبرد)، وقوله تعالى :" لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ"[٢١٠]،أى: (ومن أنفـــق بعـــده وقـــاتل)،إلـــى غـــير ذلك من وجوه الحذف فى القرآن الكريم.[٢١١]

مراعاة المضاف المحذوف

قـــد نجد –فى القرآن الكريم اختلافا بين الضمير ومرجعه –من حيث التذكير والتأنيث ،وغيرهما وذلك فى الموضع الذي يجب فيه التطابق –بيـــن الضـــمير ومرجعه،ولكـــن لم يلبث المتأمل –أن يدرك أن هذا

٢٠٨- الأنعام :١٣.
٢٠٩- النحل :٨١.
٢١٠- الحديد ١٠.
٢١١- راجع البرهان فى علوم لقرآن :(الحذف) ٣/ ١٠٢ وما بعدها

الاختلاف أمر ظاهرى،وأن التطابق بين الضمير ومرجعه-موجود ، والسر فى هذا أن الضمير يعود فى الحقيقة على مضاف محذوف،أقيم المضاف إليه مقامه،وقد روعى هذا المضاف المحذوف ،فعاد الضمير عليه،وإن كان عود الضمير على المضاف المحذوف -ينكره بعض النحاة فإن ذلك محمول على المضاف المحذوف بلا دليل ،فإذا قيل : (زيد قاموا)،وهم يريدون (غلمان زيد قاموا)-فإن ذلك لا يجوز، إذ لا دليل على المضاف المحذوف [٢١٢]،ولكن ما سنذكره من الآيات التى عاد فيها الضمير على المضاف المحذوف -فإن المضاف المحذوف -مدلول عليه بقرينة السياق ،ومما قيل فيه بعود الضمير على المضاف المحذوف الآيات الآتية :

١- قوله تعالى :" والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا" [٢١٣]، فإن ظاهر الآية -يقتضى اشتمال جملة الخبر- وهى (يتربصن)-على ضمير يخالف المبتدأ -وهو (الذين)،لأن نون النسوة تربط الجملة المخبر بها عن جماعة الإناث، لا عن جماعة الذكور،ومن ثم تعددت أقوال النحاة والمفسرين حول مرجع الضمير،فقد ذهب سيبويه -إلى أن (الذين)-مبتدأ حذف خبره،وتقديره:(وفيما يتلى عليكم حكم الذين)،ومثله -قوله تعالى :" والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما [٢١٤]" ،وقوله تعالى:" والزانية

٢١٢- راجع إملاء ما من به الرحمن : ٢/ ٣٢

٢١٣- المائدة ٣٨.

٢١٤- البقرة: ٢٣٤.

والـــزانى فـــاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة"[٢١٥] ، فالتقدير :(وفيما يتلى عليكم حكم السارق)،(وفيما يتلى عليكم حكم الزانية،أما جملة : (يتربصن)فهم بيان لحكم المتلـــو ،كـــما أن الجملتين:

(فـــاقطعوا أيديهما) ،(فاجلدوا)-بيان لحكم المتلو[٢١٦]، وذهب الفراء إلـــى أن جملة (يتربصن)-مخبر بها عن الذين -إلا أن الضمير جاء مطابقـــا لقوله :(أزواجا)،وهن متعلقات بصلة (الذين)،فترك الإخبار عـــن الأول ،وأخـــبر عما هو مقصود فى المعنى ،وها هو نص كلام الفـــراء: "يقال كيف صار الخبر عن النساء ،ولا خبر للأزواج،وكان ينـــبغى أن يكون الخبر عن (الذين)؟ فذلك جائز- إذا ذكرت أسماء،ثم ذكـــرت أســـماء مضـــافة إليها فيها معنى الخبر -أن تترك الأول - ويكـــون الخـــبر عن المضاف إليه ،فهذا من ذلك ،لأن المعنى -والله أعلـــم -إنمـــا أريـــد به :(ومن مات عنها زوجها - تربصت)،فترك الأول بـــلا خبر،وقصد الثانى،لأن فيه الخبر والمعنى "[٢١٧] ،وفى كلام الفـــاء غمـــوض وليس كلامه منطبقا على المثال -الذي ذكره ،إذ لا اخـــتلاف بين الرابط فى جملة الخبر(تربصت)،والمبتدأ :(من)،لأن (مـــن)هنا -بمعنى (التى)،أى :(التى مات عنها زوجها ،فالضمير فى (تربصـــت)-ليس عائدا على المضاف إليه فى (زوجها)-كما زعم ، وإنمـــا هـــو عـــائد علـــى مـــا عاد عليه الضمير فى (زوجها)،وهو

٢١٥- النور :٢

٢١٦- الكتاب : ١/ ١٤٣ ،وإملاء ما من به الرحمن للعكبرى : ١/ ٩٨

٢١٧- معانى القرآن : ١/ ١٥٠

(مـــن)،وليس فى الآية الكريمة –مضاف إليه تعود عليه نون النسوة ، بـــل مؤدى كلامه أن تعود نون النسوة على المفعول به :(أزواجا)– للفعـــل المعطوف على الصلة، فلعله يريد –أن الله تعالى – اخبر عن (الذيـــن)،ولكـــنه أعاد الضمير على من يتصل بهم ،وهن الأزواج ، لأنهـــن المتحدث عنمن بالعدة،وقريب من هذا – رأى الزجاج ،حيث يقول: " والذى هو الحق عندى –فى هذه المسألة –أن ذكر (الذين)– قد جرى ابتداء ، وذكر الأزواج قد جرى متصلا بصلة (الذين)،فصار الضـــمير الـــذي فى (يتربصن)– يعود على الأزواج مضافات إلى ضمير (الذين)،كأنك قلت :(يتربصن أزواجهم)،ومثل هذا من الكلام –قولـــك (الـــذي يموت ويخلف ابنتين –ترثان الثلثين)،فالمعنى :ترث ابنتاه الثلثين "[٢١٨]،وكلام الزجاج هذا أكثر وضوحا وقربا إلى الفهم من كلام الفراء،كما أن المثال –الذي ذكره الزجاج –واضح فيما أراد من تخـــريج الآيـــة –وإن كان هذا الرأى – لا يخلو من تكلف وبعد وقد أنكـــر ابـــن أبـــى الربـــيع –مـــا اخـــتاره الزجاج :من أن التقدير: (يتربصـــن أزواجهـــم)،فقال:" وهذا قول بعيد ،لأن الضمير –لابد أن يعود إلى مذكور ،وهو هنا عائد إلى الأزواج "[٢١٩]،وذهب الزمخشرى إلى أن فى الكلام –مضافا محذوفا ،وهو فى الحقيقة مرجع الضمير ،

٢١٨- معانى القرآن واعرابه : ١/ ٣١٥، ٣١٦

٢١٩- البسيط فى شرح الجمل : ١/ ٥٧٠

والـتقدير :(وأزواج الذين يتوفون منكم)[٢٢٠]،ويدل على المحذوف – قوله تعالى :" ويذرون أزواجا "[٢٢١].

وذكر العكبرى وغيره –وجهين آخرين :

أحدهمـا –أن (الذيـن)–مبتدأ ،(يتربصن)– الخبر ،والعائد محذوف، وتقديره:(يتربصن بعدهم)،أو (بعد موتهم)

والآخـر –أن (الذيـن) مبـتدأ ،وتقديـر الخبر (أزواجهم يتربصن)، فـأزواجهم –مبـتدأ ،(يتربصـن)–الخبر فحذف المبتدأ،لدلالة الكلام علـيه[٢٢٢]،وعلـيه تكون الجملة المكونة من المبتدأ المحذوف،وخبره (يتربصـن)– خبرا عن (الذين)،وقد نقل أبو حيان ، وابن هشام –هذه الآراء ،وعـزواها إلـى أصحابها ،ومن بين هذه الآراء–أن الضمير يعـود على مضاف محذوف ،أى (ونساء الذين) ،وقد عزاه أبو حيان إلـى ابـن الحـاج ،وصـدر به ابن هشام كلامه،دون أن ينسبه إلى أحـد"[٢٢٣]،ونحن نرى –أن هذا الرأى –هو أقرب الآراء –إلى طبيعة اللغـة ، لأن حـذف المضـاف ،وإقامة المضاف إليه مقامه ،وأخذه وظيفـته وإعرابه–أمر معروف فى اللغة،وشائع فى الآيات القرآنية ، لأنـه نوع من الإيجاز– الذي يتميز به الأسلوب القرآنى ،ومنه قول تعـالى: " وأشربوا فى قلوبهم العجل:[٢٢٤]أى (حب العجل)،وقد يحذف

٢٢٠- الكشاف : ٢٨١/١

٢٢١- إملاء ما من به الرحمن للعكبرى : ١/ ٩٨

٢٢٢- المرجع السابق

٢٢٣- ارتشاف الضرب :٢/ ٥١ ،٥٢ ،والتذييل والتكميل :٤/ ٢٩ ،٣٠ ،مغنى اللبيب :٢/ ٥٧٧

٢٢٤- البقرة :٩٣.

مضافان ،كما فى قوله تعالى: " أو كصيب من السماء"[٢٢٥]،أى :(كمثل ذوى صيب)،وقد ذكر الزركشى نماذج كثيرة من القرآن ،وحذف فيها –مضـــاف أو أكثر وأقيم المضاف إليه مقامه ، فيعامل معاملته ،وفى ذلـك يقول "اعلم أن المضاف إذا علم –جاء حذفه مع الالتفات إليه ، فيعامل معاملة الملفوظ به ،من عود الضمير عليه"[٢٢٦].

٢- قولـــــه تعالى :" وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قـــائلون "[٢٢٧]،فقد أنث الضمير فى (أهلكناها) ،و(فجاءها)،مراعاة للفظ القرية ،ثم أتى فى قوله تعالى :(أوهم قائلون)- بضمير العقلاء،لأنه عـــائد على المضاف المحذوف ،وهو (أهل)،والتقدير: (وكم من أهل قـــرية)،و(أهلكنا أهلنا)،و(فجاء أهلها)[٢٢٨]،ولم يقدر الزمخشرى مضافا محذوفـــا – إلا فـــى (فجاءها)،من أجل عودة الضمير:(هم)عليه ،ولا يـــرى حاجـــة إلى تقدير مضاف فى (قرية)،(أهلكناها)،لأن القرية – تهلك.[٢٢٩]

٣- قولـــــه تعالى:" ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقـــا حسنا"[٢٣٠]،قال الزمخشرى: " فإن قلت : فإلام يرجع الضمير فـــى (مـــنه)- إذا جعلـــته ظـــرفا مكررا؟ يريد :توكيدا لفظيا للجار والمجـــرور :(ومن ثمرات النخيل)-قلت :إلى المضاف المحذوف-

---

٢٢٥- البقرة : ١٩.
٢٢٦- البرهان فى علوم القرآن : ٣/ ١٥٠ مع مراجعة ص : ١٤٦ وما بعدها
٢٢٧-الأعراف : ٤
٢٢٨- البرهان فى علوم القرآن للزركشى : ٣/ ١٥١
٢٢٩- الكشاف :٢/ ٨٧ ،وراجع مغنى اللبيب :٢/٧١٥
٢٣٠- النحل : ٦٧

عن جماعة ،وفى هذا كله-مراعاة لمن يصاحب المرجع ،لادخاله فى عموم المعنى ،وسوف نسوق -توضيحا لذلك -الآيات الآتية :

١- قولـــه تعالى: وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بـــيوتا واجعلـــوا بيوتكم قبله وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين "[٢٣٣]،فإن الخطـــاب لموســـى وهـــارون -علـــيهما الســـلام -فى :(تبوأ ا)،و (ولقومكمـــا)،ثـــم انتقل الخطاب إلى جماعة -فى (اجعلوا)، (بيوتكم)، (أقـــيموا)،ثـــم انتقل الخطاب إلى مفرد -فى (بشر)،قال الزمخشرى:" فـــإن قلـــت :كيف نوع الخطاب ،فثنى أولا، ثم جمع ،ثم وحد آخرا ؟ قلت :خوطب موسى وهارون-عليهما السلام- أن يتبوأ لقومهما بيوتا، ويخـــتاراها للعبادة،ذلك مما يفوض إلى الأنبياء،ثم سيق الخطاب عاما لهما،ولقومهمـــا -باتخـــاذ المساجد ، والصلاة فيها ،لأن ذلك -واجب علـــى الجمهـــور ،ثـــم خص موسى عليه السلام -بالبشارة التى هى الغـــرض ،تعظـــيما لها ،وللمبشر بها"[٢٣٤]،وقال العكبرى:" إنما جمع فيهما -يريد:(واجعلوا)،(وأقيموا)

- لأنـــه أراد موسى وهارون -صلوات الله عليهما -وقومهما وأفرد فى قوله :(وبشر)،لأنه أراد موسى -عليه السلام -وحده ،إذ كان هـــو الرســـول ،وهارون وزيرا له ،فموسى- عليه السلام - هو الأصل " [٢٣٥].

٢٣٣- يونس : ٨٧

٢٣٤- الكشاف :٢/ ٣٦٤ .

٢٣٥- إملاء ما من به الرحمن :٢/ ٣٣

الـذي هو (العصير)،كما رجع فى قوله تعالى :" أوهم قائلون"- إلى (الأهـل)المحـذوف "[٢٣١]،ويبيـن العكـبرى –العلة فى إعادة الجار والمجـرور :(مـنه)-بـأن الأصـل :(وتتخذون من ثمرات النخيل والأعـناب)،فلما قدم وأخر-أعاد (منه)-على سبيل التوكيد اللفظى،ثم ذكر عدة آراء حول تذكير الضمير فى (منه) فقال :

" وذكـر الضـمير ،لأنه عاد على (شىء) المحذوف أو على معنى (الـثمرات) وهو (الثمر)،أو على (النخيل)،أى :(من ثمر النخل)،أو علـى الجنس ،أو على البعض ،أو على المذكور"[٢٣٢]، والأقرب –أنه عـائد علـى مضاف محذوف ،وتقديره-كما قدره الزمخشرى:(ومن عصـير ثمرات النخيل)،لأن هذا التقدير-مناسب للمعنى المراد ،إذ لا تتخذ الثمرات نفسها-سكرا،بل يتخذ عصيرها .

مراعاة المصاحب

إن كـان الضـمير-يـرجع أحـيانا إلى المضاف المحذوف،إلتفاتا، إليه،وتنبـيها علـيه فإنـه قـد يعود على من يفسره ،مع مراعاة من يصـحب هـذا المفسر ،ولا نجد هذا فى ضمير الغائب فقط،بل نجده أيضـا –فى ضمير المخاطب ،فقد يكون المخاطب –اثنين،ثم يتحول الخطاب إلى جماعة ، وقد يكون المخاطب –واحدا ،ثم ينتقل الخطاب إلـى جماعـة أيضا ،كما نجد المتحدث عنه –اثنين ،ثم ينتقل الحديث

٢٣١- الكشاف : ٢/ ٦١٧

٢٣٢- إملاء ما من به الرحمن :٢/٨٣

الأول -أن الاثنين -جمع .

الثانى -أن يكون الضمير لهما ،ولمن أرسلا إليه .

والثالث -أن الضمير -لجميع بنى إسرائيل [٢٤١]،والرأيان الأخيران- هما الأقرب-إلى طبيعة اللغة ،لأن القول -بأن الاثنين -جمع -يؤدى كما قلنا -إلى إلغاء المثنى ،وضمير ،والقول به - هروب من بيان العلة الحقيقة -لجمع الضمير .

٤- قوله تعالى: " واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا" [٢٤٢]،فقد كان الخطاب -فى أول الآية -للرسول -ﷺ، ثم تحول الخطاب- فى قوله تعالى :(بما تعملون)- إلى الجمع،وذلك لأنه -تعالى -عنى بقوله :(واتبع)- الرسول -ﷺ ، وأصحابه،أى : (واتبع أنت وأصحابك)[٢٤٣].

وننبه على أن مراعاة المصاحب فى عود الضمير تعد نوعا من الإيجاز أيضا،لأن عود ضمير الجمع- إلى المثنى ،أو إلى المفرد - يشير إلى مصاحب للمرجع،وهذا المصاحب -محذوف ،لدلالة السياق عليه ،كما أن الضمير نفسه -يشير إليه .

٢٤١- تفسير القرطبى : ٧/ ٤٩٧١

٢٤٢- الأحزاب :٢

٢٤٣- إملاء ما به الرحمن للعكبرى :٢/ ١٩٠

٢- قولـــه تعالى :" وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فـيه غـنم القـوم وكـنا لحكمهـم شاهدين"[٢٣٦]،فقد جاء الضمير فى (لحكمهم) – مجموعا ،والمتحدث عنه فى الآية –اثنان وهما :(داود) و (سـليمان)–عليهما السلام،وقد ثنى لهما الضمير فى (يحكمان)،وقد بيـن النحاة ،والمفسرون –علة جمع الضمير– بعد التثنية –بأنه تعالى أرادهما ،والمتحاكمين إليهما "[٢٣٧]،وأضاف العكبرى –وجهين آخرين:

أحدهما –أن الضمير –يعود على الذين اختصموا فى الحرث .

والآخـر –أنـه يعـود علـى (داود)و(سليمان)خاصة،لأن الاثنين – جمع[٢٣٨]،ولذلك اتخذ القرطبى من رجوع ضمير الجمع على الاثنين – دلـيلا على أن أقل الجمع–اثنان [٢٣٩]،ولكن هذا القول –ضعيف ، لأنه يؤدى إلى إلغاء المثنى،وضميره – فما نراه مقبولا–أن الضمير يعود علـى داود وسـليمان –عليهما السلام ،ومن كان مصاحبا لهما–فى القضية –من المتخاصمين .

٣- قولـه تعـالى:"قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون" [٢٤٠] فقد خاطـب الله تعالى –موسى،وهارون –عليهما السلام– بضمير المثنى فـى (فأذهـبا)،ثـم خاطبهما)–بضمير الجمع فى (معكم)،وقد أورد القرطبى –فى علة الانتقال من التثنية إلى الجمع –ثلاثة أوجه:

٢٣٦- الأنبياء : ٧٨

٢٣٧- الكشاف للزمخشرى : ٣/ ١٢٨

٢٣٨- إملاءها من به الرحمن :٢/ ١٣٥

٢٣٩- تفسير القرطبى :٦/ ٤٤٨٦

٢٤٠- الشعراء :١٥

مراعاة النظير

والمقصـــود بمراعاة النظير –أن الضمير –يكون له مرجع مطابق له نوعـــا وعـــددا –إلا أنه –ليس هو المرجع فى الحقيقة ،وإنما المرجع شـــىء مماثل فى اللفظ والمعنى،بحيث لو جعلنا المذكور فى حد ذاته –هو المرجع – لفسد المعنى ،وفى القرآن الكريم –ما يشهد على ذلك، ونذكر فى هذا الصدد –آيتين :

١– قولـــه تعالى :" ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين " [٢٤٤]،فالضمير فى (جعلناه)–يعود فى الظاهر – علـــى (الإنسان)، وإذا كان المقصود بالإنسان فى الآية هو آدم –عليه الســـلام ،وقد خلقه الله –سبحانه وتعالى– من طين ،فكيف يجعله الله تعالى –بعد ذلك نطفة ؟ فالضمير إذن لا يعود على (الإنسان)المذكور فى الآية،ولكن يعود على إنسان آخر ،من نسل هذا الإنسان المذكور، قال الزمخشرى: "فإن قلت :ما معنى :جعلنا الإنسان من نطفة ؟قلت : معـــناه –أنـــه خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً،ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفـــة "[٢٤٥]فقـــد جعـــل الزمخشرى –الضمير عائدا على الإنسان،لا باعتباره الجوهر المخلوق من الطين،ولكن باعتباره الجوهر المخلوق بعـــد ذلك، وقال القرطبى :" ويجئ الضمير فى (جعلناه)–عائدا على ابـــن آدم –وإن كـــان لم يذكر لشهرة الأمر ،فإن المعنى لا يصلح إلا

٢٤٤– المؤمنون :١٢/١٣.

٢٤٥– الكشاف : ٣ /١٧٨.

له"[٢٤٦]،وقال النسفى: :أى :نسله،فحذف المضاف ،وأقيم المضاف إليه مقامه ،لأن آدم –عليه السلام–لم يصر نطفة "[٢٤٧].

فهـذه الأقـوال ،وغيرها –لا تخرج عن كون الضمير عائدا على نسل الإنسان،أو ابن الإنسان .

٢– قولـه تعالى :" وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كـتاب "[٢٤٨]،فـإن الضمير فى (عمره)–لا يعود على (معمر)المذكور ولكـن يعود على معمر آخر ،قال الفراء:" وما يطول من عمر؟،ولا يـنقص مـن عمره،يـريد آخر غير الأول،ثم كنى عنه– بالهاء،كأنه الأول،ومـثله فى الكلام:(عندى درهم ونصفه)،يعنى –نصف درهم آخـر فجاز أن يكنى عنه بالهاء،لأن لفظ الثانى–قد يظهر كلفظ الأول فكـنى عـنه ككـناية الأول "[٢٤٩]،فالضمير فى (عمره)–لا يعود على (معمـر)–المصرح به –فى الآية ،إذ لو عاد عليه –لكان –محالا أن يعمر من عمر معمر ،وأن ينقص من عمره –فى آن واحد .

التغليب

والمـراد بالتغليـب – إعطاء الشىء حكم غيره،وقيل : ترجيح أحد المغلوبيـن علـى الآخـر،أو إطلاق لفظه عليهما –إجراء للمختلفين مجـرى المتفقيـن "[٢٥٠]،وإذا روعى التغليب فى الضمير – فإنه يعود

٢٤٦- تفسير القرطبى : ٦/ ٤٦٤٢

٢٤٧- تفسير النسفى :٣/ ١١٥

٢٤٨- فاطر :١١

٢٤٩- معانى القرآن :٢/ ٣٦٨،وراجع الهمع للسيوطى :١/ ٦٥

٢٥٠- البرهان فى علوم القرآن للزركشى :٣/ ٣٠٢

علـــى العـــاقل مـــثلا،على حين يكون مرجعه غير عاقل ،وقد يحدث العكس،ونسوق شاهدا على ذلك –آيتين من القرآن الكريم .

١–قولـــــــه تعـــالى :" وعلـــم آدم الأسماء كلها قم عرضهم على الملائكـــة[٢٥١]، فـــإن الضمير فى (عرضهم)–لجماعة العقلاء ،وهو يعود على (الأسماء)،والجمع لغير العقلاء –يفرد له الضمير مؤنثا، فـيقال :(ثـم عرضـــها)،غير أن الضمير يعود على مسميات هذه الأسماء: من يعقل منها ،ومن لا يعقل ،قال الزجاج:" قال أهل اللغة: علـــم آدم أســـماء الأجـــناس،وعرض أصحاب الأسماء من الناس وغـــيرهم –علـــى الملائكـــة ،فلذا قال (ثم عرضهم)،لأن فيهم من يعقل[٢٥٢]، وقال الزمخشرى:" أى عرض المسميات ،وإنما ذكر،لأن في المسميات العقلاء ،فغلبهم "[٢٥٣]

٢–قولـــه تعالى:" والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع"[٢٥٤]، فالضمير في (منهم)–يعود علي (كل دابة)،ولو روعى لفظها –لقيل: (منها)،ولكن جمع الضمير مذكرا،لما فى لفظ الدابة من عموم يدخل تحـــته العـــاقل وغـــيره ،والدليل علي تغليب العقلاء –أنه أتى بلفظ (مـــن)–الموضوعة للعاقل،قال المبرد:" تقول في (من):(من يأتنى– آته)،فلا يكون ذلك إلا لما يعقل ،فإن أردت بها غير ذلك –لم يكن،

٢٥١– البقرة : ٣١.
٢٥٢– معاني القرآن وإعرابه :١/ ١١٠ / ١١١
٢٥٣– الكشاف : ١/ ١٢٦، وراجع الدر المصون للحلبى ٢٦٣/١.
٢٥٤– النور : ٤٥

فإن قال قائل :فقد قال الله –عز وجل :" والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه"،فهذا لغير الآدميين ،وكذلك قوله تعالى:" ومنهم من يمشى على أربع –قيل:إنما حاز هذا ،لأنه قد خلط مع الآدميين غيرهم بقوله :" والله خلق كل دابة من ماء "[٢٥٥]

تنزيل غير العاقل منزلة العاقل

ونعنى بذلك –أننا نجد الضمير فى القرآن الكريم– يعود على غير العقلاء –بلفظ العقلاء ،وذلك تنزيلا لغير العقلاء –منزلة العقلاء . ويوضح أبو بكر بن الأنبارى ذلك –بقوله :" وجمع غير الناس – بمنزلة جمع المؤنث، تقول:(الأكبش أعجبن زيدا)،وتقول :(الرجال ضربتهم)،و(النسوة ضربتهم)،و(الأكبش ذبحتهن)،فإن قال قائل : كيف قال –جل ثناؤه:" قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم"[٢٥٦]فأدخل الواو فى جمع المؤنث ولم يقل :(ادخلن مساكنكن)؟ قيل له :لما خبر عن النمل بالقول،والقول سبيله –أن يكون للناس –أجراهن مجرى الناس وكذلك قال –عز وجل :" هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون"[٢٥٧]،ولم يقل (هل يسمعنكم ، أو ينفعنكم ، أويضرنكم) –لما ذكرنا من أنهن –يعنى الأصنام –إذا وصفن بأوصاف الناس –جرين مجرى الناس،وكذلك

٢٥٥– المقتضب :٢/ ٤٩ ،٥٠ ،وراجع البسيط فى شرح الجمل لابن أبى الربيع :١/ ٢٨٨ ،والبرهان للزركشى : ٣/ ٣٠٥

٢٥٦– النمل : ١٨

٢٥٧– الشعراء :٧٢، ٧٣.

قـــال –جل ثناؤه–:" وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الـــذي أنطـــق كل شيء"[٢٥٨]،ولم يقل : (شهدتن)،وقال تعالى:" قالوا أنطقنا الله"،ولم يقل:(قلن)،لما مضى من التفسير،وقال –تعالى :" إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين "[٢٥٩]،ولم يقـــل :(رأيتهـــن ساجدات)، لأنه لما أخبر عنهن بالسجود – جرين مجرى الناس"[٢٦٠]،وهذا كثير فى القرآن الكريم ،مما نجده لا يعقل ، ولكـــن يعـــود عليه ضمير من يعقل ،وذلك حينما تنسب إليه صفة العقلاء،أو فعل العقلاء ،وهذا كله ضرب من المجاز .[٢٦١]

مراعاة أحد الاحتمالين

والمـــراد بمراعاة أحد الاحتمالين –أن الكلمة التى تفسر الضمير – تحتمل أمرين: التذكير ،والتأنيث ،أو الإفراد،والجمع ،فيعود الضمير على أحد هذين الاحتمالين .

ومـــمـــا يحـــتمل التذكـــير والتأنيـــث –كلمـــة (ســـبيل)–فإنها تذكر وتؤنـــث،[٢٦٢]،فقـــد عاد الضمير إليها مؤنثا فى قوله تعالى :" ومن الـــناس مـــن يشـــترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويـــتخذها هـــزوا "[٢٦٣]،قال الزمخشرى :" والضمير فى (يتخذها)–

٢٥٨- فصلت :٢١

٢٥٩- يوسف :٤

٢٦٠- المذكر والمؤنث سيبويه:٢/ ٢١٥/ ٢١٦

٢٦١- راجع كتاب سيبويه :٢/ ٤٧ ،والمقتضب للمبرد :٢/ ٢٢٣ ،٢٢٤ ،٢٢٥ ،ومعانى القرآن للزجاج :٤/ ١١٢ والكشاف :٣/ ٣٥٦ ،وأمالى ابن الشجرى :١/ ٢٠٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧

٢٦٢- البلغة فى الفرق بين المذكر والمؤنث لابن الأنبارى :٦٩

٢٦٣- لقمان :٦

للسبيل،لأنها مؤنثة"[٢٦٤]،وأضاف العكبرى –احتمالين آخرين لمرجع الضمير :وهما –أنه يعود على الحديث ،لأنه بمعنى :الأحاديث ،أو علـــى الآيات[٢٦٥]،ولكن عود الضمير إلى السبيل – هو الأقرب ،لأن السبيل وردت مؤنثة فى كثير من أى القرآن الكريم ،كما أنها وردت مذكرة فى قوله تعالى :" وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا "[٢٦٦]

كذلـــك كلمة (الطاغوت)–فإنها تذكر وتؤنث أيضا،وقد عاد الضمير إلـــيها مؤنـــثا –فـــى قولـــه تعالى :" والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها "[٢٦٧]

وعـــاد الضمير إليها مذكرا –فى قوله تعالى :" يريدون أن يتحاكموا إلـــى الطـــاغوت وقـــد أمروا أن يكفروا به "[٢٦٨]،كما وردت كلمة الطاغوت –فى القرآن الكريم –بلفظ واحد [٢٦٩]،ولذلك قد يعود عليها الضـــمير بلفـــظ الجمع،كما فى قوله تعالى :" والذين كفوا أولياؤهم الطـــاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات"[٢٧٠] ،وقال سيبوية :" فأمـــا (الطـــاغوت)فهـــو اسم واحد مؤنث يقع على الجميع كهيئة

٢٦٤- الكشاف :٣/ ٤٩١

٢٦٥- إملاء ما من به الرحمن :٢/ ١٨٧

٢٦٦- الأعراف : ١٤٦

٢٦٧- الزمر :١٧

٢٦٨- النساء :٦٠

٢٦٩- البلغة فى الفرق بين المذكر والمؤنث لابن الأنبارى :٧٠،وإملاء ما من به الرحمن للعكبرى : ١/ ١٠٧ ، ١٨٤، ١٨٥ ، ٢/ ٢١٤

٢٧٠- البقرة ٢٥٧

الواحـــد"[٢٧١]،وقـــال النسفى –عند تفسير هذه الآية :" وجمع – يريد الضمير –لأن (الطاغوت)فى معنى الجمع "[٢٧٢]

إرادة التعظيم

ونعـــنى بذلك –أن المفرد – قد يخاطب بضمير الجمع –فى القرآن الكـــريم ، وقد يراد بذلك – التعظيم ، ولكن على سبيل الاحتمال ، لاعلـــى ســـبيل القطع ، إذ ما نجده فى القرآن الكريم : من خطاب المفـــرد بـــالجمع – قـــد يحـــتمل معاني أخرى – إلى جانب إرادة التعظيم، ومن ذلك – قوله تعالى : " أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر ســـور مـــثله مفـــتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صـــادقين – فـــإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله"[٢٧٣] ، فـــإن الخطاب فى قوله : (قل) – للمفرد ، وهو الرسول – صلى الله علـــيه وسلم، ثم تحول الخطاب إلى الجمع – فى قوله: (فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا) ، وقد أورد الزمخشري – فى جمع الضمير بعد الإفراد – ثلاثة احتمالات :

الأول – أن المـــراد: فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين ، لأن رسول الله – صـــلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين – كانوا يتحدونهم ، وعلى هذا الوجه يكون فى جمع الضمير – مراعاة للمصاحب ، وقد سبق الحديث عنه.

٢٧١- الكتاب : ٣/ ٢٤٠.
٢٧٢- تفسير النسفى : ١/١٣٠.
٢٧٣ – هود : ١٣، ١٤

الثانى – أن الجمع لتعظيم الرسول –ﷺ ،كقول الشاعر :

فإن شئت حرمت النساء سواكم [٢٧٤]

الثالث –أن يكون الخطاب للمشركين،والضمير فى (لم يستجيبوا)– لـ (من استطعتم)،يعنى:فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته ،لعلمهم بالعجز عنه،وأن طاقتهم –أقصر من أن تبلغه –فأعلموا أنما أنزل بعلم الله [٢٧٥]،وعلى هذا الوجه– فليس هناك انتقال من خطاب الواحد – إلى خطاب الجمع ومما تتضح فيه **إرادة** التعظيم –قو له تعالى :" قال رب ارجعون"[٢٧٦]،فلم يذكر الزمخشرى –فى جمع الضمير –إلا **إرادة** التعظيم [٢٧٧]،ولكن العكبرى –أضاف وجهين آخرين :

الأول –أن المراد :يا ملائكة ربى ارجعون،فالواو ترجع إلى مضاف محذوف .

الثانى –أنه دل بلفظ الجمع على تكرير القول ،فكأنه قال :ارجعنى ارجعنى [٢٧٨]،وهذا الوجه بعيد ،وأوضح الوجوه– إرادة التعظيم ، لأن الموقف يوم القيامة بما فيه من رهبة وإجلال–يوجب ذلك ولم،

٢٧٤- قاله العرجى :عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ،نسبة إلى عرج الطائف وتمامه : وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا وتاء (شئت)-يحتمل أنها للمتكلم ،وانها للمخاطبة وهو أبلغ ،وخاطب الواحدة بلفظ جمع المذكر ،تعظيما –مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف،للشيخ محمد عليان :٢/ ٢٩٤

٢٧٥- الكشاف :٢/ ٣٨٣

٢٧٦- المؤمنون :٩٩

٢٧٧- الكشاف :٣/ ٢٠٢

٢٧٨- إملاء ما من به الرحمن :٢/ ١٥٢

يحـــاول ابـــن هشـــام أن يلتمس علة لجمع الضمير بعد الإفراد،بل اقتصر على قوله :" وأما قوله تعالى :" قال رب ارجعون "،فأفرد ثم جمـــع ،لأن غير المبتدأ أو الخبر لا يجب له من التطابق –ما يحب لهما .[٢٧٩]

٢٧٩مغنى اللبيب :٢/ ٧١٤

خاتمة

وبعـــد –فقد تناولنا فى هذا البحث جانبا مهما من قضايا الضمير فى اللغـــة ،وهـــو العلاقـــة الوثيقة بين الضمير ومرجعه،حيث لا يفهم المـــراد مـــن الضمير –وخاصة ضمير الغائب –إلا بهذا المرجع، ولذلـــك يســـمونه مفســـرا،ولم نتناول هذا الجانب فى اللغة –بشكل عام،ولكن تناولناه من خلال القرآن الكريم ،لأنه هو المصدر الأول الـــذي تستقى منه قواعد اللغة ،وقد وجدنا الحديث عن العلاقة بين الضمير ومرجعه يتخذ خطين متوازيين لابد منهما:وهما العلاقة بين الضـــمير ومرجعه،من حيث التصريح بهذا المرجع،وعدم التصريح بـــه ،لوجـــود قرينة تدل عليه،وهذا ما تناولناه فى الفصل الأول ، والعلاقـــة بيـــن الضمير ومرجعه ،من حيث التطابق نوعا وعددا ، وعـــدم الـــتطابق ،وهـــذا ما تناولناه فى الفصل الثانى.وقد كشفت الدراسة لهذين الجانبين عن النتائج التالية:

الأولـــى : أن الأصل فى مرجع الضمير– ونعنى ضمير الغائب – أن يكـــون متقدما عليه ،ولا يتأخر عنه– إلا فى مواضع محددة فى اللغة:عدها النحاة خارجة عن القياس يكتفى فيها بالسماع،ومن ذلك ضمير الشأن والقصة ،وضمير (نعم)،و(بئس)،وضمير (ربه).

الثانـــية –أن الضمائر فى اللغة –من الكلمات المبهمة –التى تحتاج إلى ما يفسرها ،ويوضحها ،وهذا يتمثل فى المرجع ،تقدم أو تأخر.

الثالثة –أن تقدم المرجع –قد يكون لفظيا،حيث يصرح به فى الكلام، وقد يكون معنويا ،حيث لا يصرح به فى الكلام،لدلالة الكلام عليه،وقد وجدنا لذلك شواهد كثيرة فى القرآن الكريم ،وليس للتقدم المعنوى –صورة واحدة ،بل له أنواع متعددة : منها –الرتبة ، ودلالة الحس عليه ،ودلالة الفعل عليه ،ودلالة السياق عليه –إلى غير ذلك من وجوه التقدم المعنوى ،وقد يكون التقدم حكميا ، وأرادوا بذلك عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة ،فى المواضع المحددة التى أشرنا إليها سابقا،وقد عد النحاة- ذلك نوعا من التقدم، حتى لا يخرجوا بالضمير عن أصله فى الاستعمال .

الرابعة –أن القرآن الكريم يشتمل على كثير من المواضع –التى وجدنا فيها مخالفة بين الضمير ومرجعه،إما من حيث التذكير والتأنيث ،أو من حيث الإفراد والتثنية والجمع.

الخامسة –أن هذه المخالفة –ليست فى الحقيقة –مخالفة حقيقية ، وإنما هى مخالفة فى الظاهر ،وبالتدقيق والنظر–نجد المطابقة بين الضمير ومرجعه–لا تزال متحققة ،وأن العلاقة بين الضمير ومرجعه –لا تخرج عن أصلها من المطابقة .

السادسة – أننا نتبعنا أقوال النحاة والمفسرين فى سر هذه المخالفة، فوجدناها تتسق تماما مع قواعد اللغة ،وقوانين العربية،وأنها لا تخرج عن سمت كلام العرب .

السابعة –أن كثرة الاحتمالات ،وتعدد الأقوال فى سر المخالفة بين الضـــمير ومـــرجعه فـــى القرآن الكريم –دليل على إعجاز القرآن الكريم،حيـــث تتعدد وجوه الإعجاز فيه،ولا يقف الناظر فيها –عند حـــد ،بل كلما نظر فى وجه من هذه الوجوه ،توصل إلى مزيد من أسرار الإعجاز .

الثامـــنة –أن الإيجاز –فيما ذكرناه من أسرار المخالفة بين الضمير ومـــرجعه –كان السمة الغالبة ،لأن الإيجاز،من حذف ،وغيره –مما يميز الأسلوب القرآنى .

التاســـعة –أن أسرار المخالفة بين الضمير ومرجعه –لا تقف عند التحليل النحوى أو اللغوى ،بل تتعدى ذلك إلى المعنى ،حيث يترتب علـــى تعـــدد الآراء –تعدد فى المعنى ،وتنوع فى الدلالة ، والنص الكريم له معطيات معنوية،لا يصل العقل إلى نهايتها .

العاشـــرة –أن الضمائر –بوجه عام –تمثل جانبا مهما من جوانب اللغة ،إذ لا غنى لأى تركيب لغوى–عن الضمير، ويمكن القول بأن الضـــمير بالنســـبة للأســـلوب العربى –يشبه الخيط الذي تنتظم فيه حبات العقد .

المصادر والمراجع

١- إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر،للشيخ أحمد بن محمد الشهير بالدمياطى البناء،رواه وصححه وعلق عليه-على محمد الضباع،دار الندوة الجديدة،بيروت -لبنان د-ت .

٢- ارتشاف الضرب من لسان العرب ،لأبى حيان الأندلسى ، تحقيق -الدكتور مصطفى أحمد النماس،الطبعة الأولى ،١٤٠٤ -١٩٨٤ ،مطبعة النسر الذهبى .

٣- أمالى ابن الشجرى ،لهبة الله بن على بن محمد بن حمزة الحسنى العلوى،تحقيق ودراسة -الدكتور محمود محمد الطناحى،الناشر مكتبة الخانجى الطبعة الأولى ،١٤١٣ - ١٩٩٢ .

٤- إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات ، تأليف ابى البقاء العكبرى ،دار الكتب العلمية ،بيروت -لبنان، الطبعة الأولى ١٣٩٩- ١٩٧٩ .

٥- الانتصاف بذيل الكشاف ،للإمام :أحمد بن المنير الإسكندرى

٦- البحر المحيط ،لأبى حيان الأندلسى،دار الكتب ،١٣٩٨ - ١٩٧٨.

٧- البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الرزكشى،تحقيق -محمد أبو الفضل إبراهيم ،مكتبة دار التراث بالقاهرة،د-ت .

٨- البسيط فى شرح جمل الزجاجى، لابن أبى الربيع :عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشى الإشبيلى السبتى،تحقيق ودارسة – الدكتور عياد بن عيد الثبيتى ،دار الغرب الإسلامى ،بيروت – لبنان ،الطبعة الأولى ،١٤٠٧ ، ١٩٨٦ .

٩- البلغة فى الفرق بين المذكر والمؤنث ،لأبى البركات بن الأنبارى ،حققه وقدم له وعلق عليه- الدكتور رمضان عبد التواب ،الناشر –مكتبة الخانجى بالقاهرة، الطبعة الثانية ، ١٤١٧ –١٩٩٦-

١٠- البيان فى روائع القرآن دارسة لغوية وأسلوبية للنص القرآنى، للدكتور تمام حسان ،عالم الكتب ،الطبعة الثانية ،١٤٢٠ – ٢٠٠٠ .

١١- التذييل والتكميل فى شرح كتاب التسهيل،لأبى حيان الأندلسى، حققه الأستاذ الدكتور حسن هنداوى،دار القلم –دمشق،الطبعة الأولى ،١٤١٨ –١٩٩٧ .

١٢- تفسير القرطبى المسمى الجامع لأحكام القرآن،الطبعة الثالثة – دار الغد العربى القاهرة ،١٤٠٩ –١٩٨٩ .

١٣- تفسير النسفى ،للإمام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى ، دار إحياء الكتب العربية ،عيسى البابى الحلبى وشركاه د–ت.

١٤- حاشية الصبان على شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك، دار إحياء الكتب العربية ،عيسى البابى الحلبى وشركاه،د–ت.

١٥- الحجة فى علل القراءات السبع ،لأبى على الفارسى ،تحقيق – علـــى الـــنجدى ناصـــف،والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبى، ومـــراجعة محمـــد علـــى النجار ،مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة،الطبعة الثالثة ،١٤٢١ –٢٠٠٠ .

١٦- خـــزانة الأدب ولـــب لباب لسان العرب تأليف عبد القادر بن عمر البغدادى ،تحقيق وشرح –عبد السلام محمد هارون،الهيئة المصرية العامة للكتاب،الطبعة الثانية –١٩٧٩.

١٧- الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون تأليف أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبى تحقيق الدكتور / أحمد محمد الخراط – دار القلم – دمشق الطبعة الأولى ١٤٠٦-١٩٨٦.

١٨- الســـبعة فـــى القـــراءات ،لابن مجاهد،تحقيق ،الدكتور شوقى ضيف،الطبعة الثانية ،دار المعارف ،د.ت .

١٩- شـــرح التصـــريح علـــى التوضـــيح ،للشيخ خالد بن عبد الله الأزهرى ،على ألفية ابن مالك،دار إحياء الكتب العربية،عيسى البابى الحلبى،د.ت .

٢٠- شـــرح الفـــاكهى ،علـــى قطر الندى لابن هشام،شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده،الطبعة الثانية ،١٣٩٠ –١٩٧١ .

٢١- شرح كافية ابن الحاجب فى النحو ،للشيخ،رضى الدين محمد بن الحسن الإستراباذى النحوى،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان، ١٤٠٥ -١٩٨٥ .

٢٢- شرح المفصل ،تأليف الشيخ موفق الدين بن يعيش النحوى ، عالم الكتب ،بيروت ،د.ت

٢٣- الكتاب ،لسيبويه :أبى بشر عمرو بن عثمان بن قنبر،تحقيق وشرح- عبد السلام هارون ،دار الكتب العلمية -بيروت، الطبعة الثالثة ،١٤٠٨ -١٩٨٨ .

٢٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل،وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ،للإمام محمود بن عمر الزمخشرى ،الناشر -دار الريان للتراث ،ودار الكتاب العربى،بيروت لبنان ،رتبة وضبطه وصححه-مصطفى حسين أحمد ،الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ -١٩٨٧ .

٢٥- المحتسب فى تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها،تأليف أبى الفتح: عثمان بن جنى ،تحقيق -على النجدى ناصف ،والدكتور عبد الحليم النجار ،والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبى،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ،لجنة إحياء التراث الإسلامى ،القاهرة ١٣٨٦.

٢٦- المذكـــر والمؤنث ،لأبى بكر بن الأنبارى،حققه وعلق عليه- الدكـــتور رمضان عبد التواب،وزارة الأوقاف،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،لجنة إحياء التراث بالقاهرة،١٤١٩- ١٩٩٩.
٢٧- مشـــاهد الإنصـــاف على شواهد الكشاف،للشيخ محمد عليان المذكور-بذيل الكشاف.
٢٨- معـــانى القـــرآن ،تأليف أبى زكرياء: يحيى بن زياد الفراء، الجزء الأول -تحقيق أحمد يوسف نجاتى ،ومحمد على النجار، مطـــبعة دار الكتب المصرية ،الطبعة الثالثة،١٤٢٢ -٢٠٠١، والجـــزء الثانى،تحقـــيق ومراجعة-الأستاذ محمد على النجار، الـــدار المصرية للتأليف والترجمة،د.ت ،والجزء الثالث،تحقيق الدكـــتور عـــبد الفتاح إسماعيل شلبى ،ومراجعة الأستاذ على النجدى ناصف ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٧٣ .
٢٩- معـــانى القـــرآنى وإعـــرابه ،للزجاج :أبى إسحق إبراهيم بن السرى،وشـــرح وتحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبى ،عالم الكتب ،الطبعة الأولى ،١٤٠٨ -١٩٨٨ .
٣٠- مغـــنى اللبيـــب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام الأنصارى المصـــرى ،تحقـــيق - محمـــد محيى الدين عبد الحميد،مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده،د. ت
٣١- المقتضب ،صنعه -أبى العباس :محمد بن يزيد المبرد ،تحقيق -محمـــد عـــبد الخـــالق عضـــيمة، المجلـــس الأعلى للشئون

الإسلامية ،لجنة إحياء التراث الإسلامى القاهرة الطبعة الثالثة، ١٤١٥ -١٩٩٤ .

٣٢- المقـــرب ،تألـــيف -على بن مؤمن المعروف بابن عصفور ، تحقـــيق أحمد عبد الستار الجوارى،وعبد الله الجبورى،الطبعة الأولى، ١٣٩١-١٩٧١ .

٣٣- الـــنحو الوافـــى ،للأستاذ عباس حسن،دار المعارف ،الطبعة الحادية عشرة،د. ت

٣٤- همـــع الهوامع شرح جمع الجوامع ،تأليف الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ،صححه -محمد بدر الديـــن النعسانى ،دار المعرفة للطباعة والنشر ،بيروت-لبنان، د-ت .

الفهرست

الموضوع	الصفحة
تقديم	٧
تمهيد	١١
الفصل الأول	١٥
بين الضمير ومرجعه	١٧
أولا –التقدم اللفظى :	١٨
ثانيا –التقدم المعنوى :	٢٠
ثالثا –التقدم الحكمى :	٣٠
الفصل الثانى	٣٣
من أسرار المخالفة بين الضمير ومرجعه	٣٥
مراعاة المعنى	٣٦
عود الضمير على المتعاطفين	٥٤
مراعاة المضاف والمحذوف	٧٠
مراعاة المصاحب	٧٧
مراعاة النظير	٨٠
التغليب	٨١
تنزيل غير العاقل منزلة العاقل	٨٣

مراعاة أجد الاحتمالين ٨٤
إرادة التعظيم ٨٦
خاتمة ٨٩
المصادر والمراجع ٩٢
الفهرست ٩٩